كليــة اللغة العربية بأسيوط
المجلـة العلميــة

تنـــوع الخطـــاب النبـــوي تقديـــراً لمقتضـــى الحـــال

إعداد

د/ مـدحـت حسينـي حسينـي ليمـونـه
الأستاذ المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بكفر الشيخ

(العـدد الواحد والأربعون)
(الإصدار الأول... أبريل)
الجزء الثانـي
(١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م)

تنـــوع الخطاب النبـــوي تقـديـرا لمقتضـــى الحـال

مدحت حسيني حسيني ليمونه
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، جامعة الأزهر الشريف، كفر الشيخ ، مصر
البريـــد الإلكـــتروني: Medhatlaimona909.el@azhar.edu.eg

الملخـــص

يناقش هذا البحث قدرة النبي(ﷺ) الفريدة في الاتصال بأمة الدعوة من خلال الرصد الدقيق لأحوال المدعوين ،واعتبار ظروفهم النفسية والاجتماعية والسياسية .. الخ ، على الرغم من أن الله تعالى خلقهم على صفات متفاوتة ، وإدراكات متباينة ، فيتنوع الخطاب النبوي بتنوع هذه الأحوال والمقامات وتباينها ،فخطاب المسلمين يختلف عن خطاب غيرهم ، وخطاب الشيخ يغاير خطاب الشاب ومن دونه ، وخطاب صاحب المكانة يغاير خطاب من دنت منزلته وهكذا ، ولذا كان موضوع الاتصال التربوي من أهم الموضوعات العصرية ؛لما له من أهمية في تطوير العلاقات الإنسانية في مختلف مجالاتها ، فجاءت دعوته(ﷺ)متلائمة مع التفاوت الطبيعي في تفكير الناس ، منسجمة مع عقولهم ،تراعي الفروق الفردية بينهم .. ومن هنا كان للاتصال النبوي بأمة الدعوة واعتباره لأحوالها المختلفة قوته وفاعليته في تنوع الأسلوب بين السهولة والإغراب ، وتنوعه كذلك بين الإيجاز والإطناب ، وتنوعه بين الشدة واللين ، كما كان له أثره القوي في تنوع وصايا النبي وأجوبته وفتواه وتكليفاته، كما تنوع الخطاب النبوي بتنوع درجة المخاطب ونوعه، فضلا عن تنوعه في قبول الصدقة ومنحها بتنوع مقتضر الحال.
ومن هنا فقد اتسم الخطاب النبوي ، بالتنوع والشمولية لشمول دعوته(ﷺ)لكل الخلائق ، على اختلاف عصورهم ، وأنماط حياتهم ، ومستوى تفكيرهم ، مما يستدعي خطابا خاصا يراعي فيه طبيعة كل فئة وحالها وظروف حياتها ، وبذلك يقوم الاتصال النبوي في خطابه(ﷺ)على بعد إنساني يهدف إلى تقدير المدعوين واحترام عقولهم ، ومراعاة ظروفهم الخاصة ، والاستجابة الملائمة لأحوالهم وقدراتهم .

الكلمات الافتتاحية: الخطاب، المتلقين، التواصل اللغوي، بلاغة نبوية، مقام.

Diversity of the Prophetic discourse in appreciation as the case may be

Medhat Hosseini Hosseini Lemonona
Department of Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Girls, Al-Azhar University, Kafr El-Sheikh, Egypt
E -mail : Medhatlaimona909.el@azhar.edu.eg

Abstract:

This research discusses the prophet's ﷺ unique ability to communicate with the nation of da'wa through careful monitoring of the conditions of the invitees, and considering their psychological, social, political conditions. Etc., although Allah created them on varying qualities, and differing perceptions, because the prophetic discourse varies in the diversity of these conditions and denominators and their different places, the discourse of Muslims is different from that of others, and the speech of the Sheikh is different from the speech of the young man, and the speech of the owner of the status is different from the speech of his status and so on, and therefore the subject of educational communication from The most important topics of modern, because of its importance in the development of human relations in its various fields, so his call was in line with the natural disparity in people's thinking, consistent with their minds, taking into account the individual differences between them.. Hence the prophetic contact with the nation of da'wa and considering its different conditions its strength and effectiveness in the diversity of style between ease and alienation, as well as its diversity between brevity and

discernment, and its diversity between intensity and softness, as well as its strong impact in the diversity of the prophet's commandments His answers, fatwas and assignments, as well as the diversity of the prophetic discourse in the diversity of the degree and type of speech, as well as its diversity in accepting and granting charity .

Hence, the prophetic discourse was characterized by diversity and inclusiveness, to include all creatures, different eras, lifestyles and level of thinking, which calls for a special speech that takes into account the nature of each group, their situation and the circumstances of their lives, thus basing the prophetic communication in his speech ﷺ at a human dimension aimed at appreciating the invitees, respecting their minds, taking into account their own circumstances, and responding appropriately to their conditions and abilities.

Keywords: *Discourse, Recipients, Linguistic Communication, Prophetic Rhetoric, Maqam.*

المقـــدمـــة

الحمد لله العظيم المنان، الرحيم الرحمن، خلق الإنسان ومنحه نطق اللسان، وهدى من شاء من عباده إلى طريق الإيمان، وكرم أمة نبيه بالصلاة والصيام وتلاوة القرآن، وجعل من أصفيائه أهل العلم والعرفان، وألبسهم من حال الرضوان، فسبحان المنعم المنان، والصلاة والسلام على نبيه العدنان، صلاة تدوم على مر الزمان، خير الخلائق من إنس وجان، علمه ربه الفصاحة والبيان، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، فلم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، وما سُمع كلام قط أعم نفعا، ولا أصدق لفظا، ولا أجمل مذهبا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه (ﷺ) [1]، الذي شق ظلام الجهالة بنور العلم فإذا بالبشرية ترنو إلى الأفق، تستشف ما وراءه من سحر القول، وشجي النغم، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا زهورا عاطرة في ناضر روضه، ونجوما زاهرة في سماء مجده، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعـــد.....

فقد نالت رعاية حال المخاطب عناية كبيرة لدى دارسي البلاغة، بل كانت عليها مدار البلاغة من عدمها، ومن هنا ظهرت عنايتهم بوجوب مراعاة المتكلم لأحوال المخاطبين.. ويتضح اهتمام البلاغيين بمقتضى الحال من خلال عبارتهم المشهورة "لكل مقام مقال"، لما لها من دور مهم في المعنى، فهو "ركن أساسي في الصحة الخارجية للنص، فقد يكون النص فصيحا أي صحيحا صحة داخلية من حيث دواخله التركيبية وقواعده الفونولوجية والصرفية والنحوية، ولكنه لا يكون بليغا إلا إذا وافق مقتضى الحال، وما يتبعه من أجواء خارجية (اجتماعية وثقافية)، وقد لخص البلاغيون ذلك في

(١) ينظر: البيان والتبيين، للجاحظ: ١/ ١٠، ١٢٩ دار ومكتبة الهلال . بيروت١٤٢٣هـ.

قولهم(لكل مقام مقال)" [١]، أو مقولتهم الأخرى التي عرَّفوا بها البلاغة: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته" [٢].

وتتجلى هذه العناية بصورة واضحة من خلال ربطهم الصياغة اللغوية (النحوية والصرفية) بالسياق والمقام، ولذا كان مقياس الكلام بحسب مناسبته لمقتضى الحال أدخل في باب الحسن، يقول السكاكي: "فإن كان مقتضي الحال إطلاق فحسن الكلام تجريده من مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة، وإذا كان مقتضى الحال ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا إن كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره، وإن كان المقتضى إثباته مخصصا بشيء من التخصيصات فحسن الكلام نقله على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المتقدم ذكرها"[٣].

فلا شك أن مقامات الكلام تتشكل وتتنوع بحسب العلاقات الاتصالية وما يقتضيه هذا الاتصال.. ولذا تعددت مقتضيات نظم الكلام وتنوعت بتنوع مقاماته، فليس المبدع حرا حرية مطلقة في إنتاجه الإبداعي، وإنما يخضع إلى مقام المتلقي في الغالب، وما يكتنفه من أحوال، مستعينا بتراكيب لغوية وبلاغية تسمو به نحو الغاية والقصد.. وليس ذلك لأحد إلا لبليغ حذق يملك ناصية اللغة، ويدرك مراميها، ويميز بين مقاماتها المختلفة، وما تستدعيه من تراكيب خاصة، وصور مؤثرة.

(١) علم اللغة الاجتماعي، د. كمال بشر: ٩٧ دار غريب للطباعة والنشر. القاهرة، ط:٣.١٩٩٧م .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني: ٤١/١، تح: د. محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الجيل . بيروت، ط: ثالثة ١٤١٤هـ . ١٩٩٣م.

(٣) مفتاح العلوم، للسكاكي: ٢٥٦-٢٥٧، تح: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية . بيروت، ط: أولى ٢٠٠٠م.

ومن ثم كانت عناية البلاغيين بتحديد العلاقة بين المبدع والمتلقي، والوقوف على أثرها في تحقيق فائدة الكلام، وتحقيق الاتصال الكامل بين الطرفين، ومدى استجابة المخاطب له، ومراعاة الظروف المحيطة بالحدث.. ولذا برز أثر المخاطب والمتكلم في العملية اللغوية والاتصال البلاغي، وعُد المخاطب شريكا للمتكلم في إنتاج الكلام.

وفي ذلك وغيره رصد لأحوال المخاطَب، وربط دقيق بين الأحوال الاجتماعية والنفسية له، ومن ثم تحصل الفائدة، إذ لا يمكن أن يحصل المخاطب على فائدة من خطاب المتكلم ما لم يتم مراعاة حاله، بما يحيطه من مستوى ثقافي ومكانة اجتماعية تجعل تراكيب الكلام مطابقة لمقتضى حاله، مما يضمن وصول قصد المتكلم.. ومن ثم كان علم المعاني لدى الكثير من البلاغيين . وعلى رأسهم السكاكي . هو تتبع أحوال العلاقات بين تراكيب الكلام ومقتضى الحال، إذ يراد من تراكيب الكلام الصادرة عن صاحب الدراية بالأساليب أن تكون مطابقة لمقتضى الحال، ليكون الناتج عن علاقة المطابقة بين تراكيب الكلام ومقتضى الحال هو الإفادة والاستحسان لخطاب المتكلم [1].

وقد راعى الدين الحنيف أقدار المخاطبين، وأحوال المدعوين المتباينة في خطاباته المتنوعة على مدار الزمان والمكان، تجلى ذلك في صورته المشرقة من خلال بعث الله سبحانه وتعالى . الأنبياء والرسل . دون غيرهم . إلى أقوامهم، كما بعثهم بألسنة قومهم ومعجزات تلائم حالهم؛ حتى يفهموا ما يخاطبهم به، ويدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة على الله... وقد أمر رسوله (ﷺ) بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا يستلزم التعرف على أحوال المدعوين لأهمية مراعاتها في دعوته، فجعل مراتب الدعوة بحسب مراتب الخَلق، فالمستجيب القابل الذكي، الذي لا يعاند يناسبه طريق الحكمة،

(١) ينظر: علم التركيب الوظيفي في مشكلة الحدود بين النحو وعلم المعاني، د. دلال وهبه، د. حسن الأبيض: ١٤٨المجلة العربية للعلوم الإنسانية . جامعة الكويت،عدد(٧٠)لعام ٢٠٠٠م.

والقابل الذي عنده نوع من الغفلة يناسبه طريق الموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترغيب، والمعاند الجاهل يُجادل بالتي هي أحسن[١].

ولا شك أن اختيار طريقة ما في الدعوة مع أي طائفة يستدعي معرفة حال تلك الطائفة، حتى تؤدي الدعوة أثرها وثمرتها، نظرا لاختلاف حال المدعوين، ففيهم الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والسيد والمسود، والمسلم والكافر والمنافق، وغيرهم، فكان في رعايته (ﷺ)حال المخاطب دليل على بلاغته وإنجاح دعوته.

ولا يمكن أن نجد في أي ممارسة تربوية من مهارات التبليغ والتواصل ما نجده في رحاب الخطاب النبوي، من حيث كونه خطابا تربويا ناجعا ومميزا، يأتي في المرتبة بعد الخطاب القرآني، من حيث الشكل والمضمون، والوصف والتصوير، والتأثير والإقناع، والتنوع في الخطاب، ومراعاة المهارات الإنسانية المتنوعة، ومقتضيات الأحوال المختلفة، وجميعها أدوات ووسائل مناسبة لتبليغ الدعوة الإلهية، والرسالة المحمدية في ظروفها المتباينة بما يكشف عن أعظم النماذج الإنسانية في التبليغ والتواصل، ويستوقف النظر، ويدعو إلى تأمل أثره (ﷺ)في عملية التواصل، وكيف كانت مراعاته(ﷺ)لأحوال المخاطبين، على كثرتهم وتنوعهم وتعددهم في كل المواقف وسيلة من وسائل نجاح دعوته، وإنجاز مهمته.

ومن ثم يتسم الخطاب النبوي في اتصاله بالشمولية لجميع أصناف المخاطبين على اختلاف أجناسهم، ودرجاتهم، وأمكنتهم، ومِلَلِهم، وهذا فارق بديع في نوعية الخطاب النبوي البليغ عن غيره من سائر الخطابات، لأنه مَعْنِي بجميع الجوانب الإنسانية في ذاته، حيث مخاطبة العقل والعاطفة معا، ومخاطبة العامة والخاصة، دون أن ينحاز إلى جانب على حساب آخر، وإنما كان التوازن الدقيق هو أهم ما يميزه، ولذا

(١) ينظر: مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة (مفهوم، ونظر، وتطبيق)، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني: ١٠٢، مطبعة سفير، الرياض(دون).

اتسم اتصال النبي (ﷺ) وخطابه بتلاؤمه واتساقه مع المخاطبين . رغم التفاوت الطبيعي بين عقولهم وتفكيرهم .، فقد راعى الفروق الفردية بينهم، وخاطب كل شريحة بما ينسجم ومستواها العقلي، والفكري، والاجتماعي، والوجداني، وراعى ما ميزهم الله به من مواهب وقدرات، فلكثرة المخاطبين، وتنوع طبائعهم، وتفاوت مداركهم، استدعت الضرورة مراعاة أحوالهم وظروفهم؛ لضمان فرص الاستجابة والإذعان.

ومن هنا كانت دراستي لهذا الموضوع، وكان من أبرز الأسباب: .

١- التماس الخصوصية الفردية التي تميز بها البيان النبوي بوصفه رسالة تبليغية من مرسل إلى متلق من جهة، وما تنطوي عليه من آليات تبليغية متفردة بالأشكال التواصلية من جهة أخرى.

٢- استثمار النموذج التربوي الذي تمسك به النبي (ﷺ)في تبليغ دعوته على أكمل وجه وأتمه.

٣- الوقوف على دقة الدعوة النبوية في مراعاة أحوال المخاطبين جميعا على الرغم من كثرتهم، وتباين مواقفهم، وتنوع طبائعهم ومداركهم.

٤- الكشف عن البعد الإنساني في الاتصال النبوي من خلال مراعاة مقتضى حال المخاطب بشكل قوي وفاعل، من حيث تقدير المخاطب ومراعاة ظروفه، والاستجابة الملائمة لحاجاته وقدراته الخاصة.

كما تهدف هذه الدراسة إلى الربط الوثيق بين البلاغة العربية، وميادين الحياة المختلفة، بتقديم خطاب دعوي يقوم على مراعاة الظروف والملابسات المحيطة بالمدعو، يوجه الداعية إلى الدقة في التعرف على أحوال المخاطبين ليتمكن من غرس العقيدة الصحيحة، ومحاربة السلوكيات الفاسدة، كما يوجه المعلمين والقيادات التربوية في كل المؤسسات إلى فهم طبيعة المخاطَبين وقراءتها قراءة واعية كيما يتمكنوا من التعامل معهم بما يناسب حالهم، وبما يضمن لهم التأثير الناجع، فالدعوة الإسلامية

موجهة إلى كافة الناس، على اختلاف عصورهم وطبائعهم، ومستوى تفكيرهم، وأنماط حياتهم، مما يستدعي خطابا خاصا يتناسب وكل فئة.

ولذا كان التفكير في هذا الموضوع، إلحاحا على ضرورة النظر في العلاقة التواصلية بين المعلم الأعظم (ﷺ)، وبين المتعلم، وما يمكن أن تثمر عنه هذه العلاقة في تحديث طرق التواصل والتفاعل التربوي في حياتنا اليومية في كل المحاضن التربوية، على اختلاف درجاتها وأنواعها، ليكون على رأس أسباب وأهداف البحث التركيز على دور النبي (ﷺ) في الاتصال الفاعل، وإنتاج الخطاب التأثيري الذي يوقفنا على حقيقة عملية التواصل التربوي الناجع والمؤثر رغم اختلاف مقتضى الحال.. وكيف وظف الخطاب النبوي العديد من المواقف التربوية لتحقيق هدف التواصل، بما له من دور مهم في التأثير والإقناع؟ وكيف أسهم الخطاب النبوي في تحقيق اتصال قوي مؤثر بفضل مراعاة حال المخاطب؟ ومدى فاعلية الخطاب التربوي بفعل هذه الرعاية لمقتضيات الأحوال وأثره في تقوية الاتصال النبوي بالأفراد والجماعات. وهل تعد مراعاة مقتضى الحال في الخطاب النبوي آلية تواصل فاعلة في الإقناع والتأثير؟ وإذا كانت بالفعل كذلك، فكيف يمكن استثمارها في المجال التربوي ليتم تطوير أفكاره وتطلعاته ومبادئه الحضارية والإنسانية؟

وفي محاولة الإجابة على هذه الفرضيات والتساؤلات يلزمنا عملا نظريا تطبيقيا يقوم على إبراز قيمة مراعاة المقامات المختلفة، واستجلاء العديد من مواطن الاتصال النبوي، بما قامت عليه من تأثير وإقناع بفعل الرعاية لمقتضيات الأحوال، على الرغم من كثرتها وتعددها، وهذا هو المنهج الأمثل لمثل هذه الدراسات.

على أن الباحث قد اتبع في بحثه هذا أكثر من منهج ، فكان للمنهج الاستقرائي دوره البارز في تتبع جزئيات البحث ، وجمع الأحاديث التي تقوم على تنوع الخطاب النبوي ، وتنوع مقتضى الحال، ودراستها وفحصها ؛ للمساعدة في استنباط نتائج صحيحة تؤكد ما يهدف إليه الموضوع، وكان للمنهج التحليلي أثره في إبراز تفاعل الخطاب النبوي

بشدة مع مقتضى الحال،عن طريق مقارنة المقامات والأحوال المختلفة ، وأثر ذلك في إبراز نجاعة النبي (ﷺ)ودقته في التفاعل والاتصال بالأحوال المتباينة . وجاء تخريج معظم أحاديث هذا البحث من صحيحي البخاري ومسلم ، إلا في القليل ، وعند الضرورة، كبعض الأحاديث والخطب والرسائل التي لم أعثر عليها في الكتابين الجليلين .

الدراسات السابقة:

على الرغم من أن موضوع مراعاة المقام وحال المخاطب من الموضوعات التي شغلت الباحثين والدارسين بشكل كبير سواء في القرآن الكريم ، أو الحديث الشريف ، أو في الشعر ، إلا أن هناك ندرة في الحديث عن تنوع الخطاب في الموضوع الواحد أو المعنى الواحد باعتبار تنوع مقتضى الحال ،ومن خلال الاطلاع وقفت على بعض الدراسات السابقة ، يمكن تلخيصها فيما يأتي :

- بلاغة الرسول، د.علي محمد العماري.
- البيان النبوي ، د. محمد رجب البيومي.
- من بلاغة الحديث الشريف، د. عبد الفتاح لاشين.
- رعاية مقتضى الحال في خطاب النبي (التعبير غير اللفظي أنموذجا)،كمال قدة.
- مراعاة أحوال المخاطبين في القرآن (حقيقة القاعدة وشواهد الاعتبار) ، خيرة سرسر حاج .
- السياق المقامي وأهميته في تفسير صيغ المخاطبة في الخطاب النبوي ، وان محمد وان سولونج، رسالة ماجستير،جامعة بوترا الماليزية .
- مراعاة السياق وأثره في فهم السنة النبوية ، فاروق حماده(مقال).
- أثر السياق في توجيه شرح أحاديث عن ابن حجر العسقلاني ، أحمد مصطفى، الجامعة الإسلامية . غزة.

- لغة الخطاب التربوي في صحيح البخاري بين التبليغ والتداول، حورية رزقي ، جامعة محمد خيضر . بسكرة .
- الخطاب النبوي آلياته واستراتيجياته اللغوية من خلال صحيح البخاري، آسيا نعماني ، جامعة الجزائر . كلية اللغة العربية .
- التنوع اللغوي الاجتماعي في أسلوب الخطاب النبوي (دراسة تحليلية في نماذج من أحاديث صحيح مسلم) ، وان محمد وان سولونج دكتوراة ، الجامعة الإسلامية . ماليزيا.
- مهارات الاتصال في الحديث النبوي الشريف، أبو يعقوب بكر بن أرشيد.
- الاتصال الإنساني في الحديث النبوي دراسة تأصيلية، حسين علي حسين.ماجستير،الجامعة الأردنية.
- الخطاب النبوي الشريف في الأربعين النووية (مقاربة تداولية في القصد والحمل والتقبل)،خالد ناصر ، دكتوراة ،جامعة محمد بوضياف بالمسيلة .
- الخطاب التوجيهي في الحديث النبوي الشريف في ضوء اللسانيات التداولية ، حسين علي حسين جامعة بغداد.

هذه بعض الدراسات التي أشارت إلى (رعاية مقتضى الحال) ، منها ما جاء في القرآن الكريم ، ومنها ما جاء في الحديث الشريف ، وعلى كثرة ما جاء في البيان النبوي من دراسات فقد أشارت وألمحت إلى رعاية مقتضى الحال، دون تعمق أو تفصيل ،إما لأنها دراسة دعوية لا تركز على البعد البلاغي وأساليبه ، أو لأنها تتحدث في المطلق دون تتبع لمقاماته المتنوعة ، ودون تخصيص لحال المخاطب إلا على سبيل الإشارة.. على أن هذه الإشارات والتلميحات كانت الدافع وراء دراسة هذه القضية ، والدلالة على أهميتها ، ومن ثم كان هذا الموضوع وهذه الدراسة التي ركزت على تنوع الخطاب النبوي بتنوع مقتضى الحال ، واعتنت بجمع الشواهد التي

تشمل مقامات الخطاب النبوي في الغالب، والتي تقوم على تنوع الخطاب النبوي بتنوع حال المخاطب على الرغم من اتحاد الموضوع أو المقام في الغالب، وكذلك تنوع الأساليب بتنوع حال المخاطب، كتنوع الأسلوب بين السهولة والإغراب ، وتنوعه بين التأكيد والإرسال ، وتنوعه بين التصريح والتلميح ، وتنوعه بين الإيجاز والإطناب ، على الرغم من اتحاد المقام ، وعلى الرغم من اتحاد جنس المخاطب ، وغير ذلك مما يشهد بقوة الاتصال النبوي وعمق تفاعله مع أمة الدعوة ، وفهمه الشديد لأحوالهم وأمزجتهم وطبائعهم ، مما كان له الأثر القوي في انجاح دعوته.

وقد جاء مسار البحث على مبحثين :

المبحث الأول: تنوع الخطاب النبوي في السياقات المختلفة بتنوع مقتضي الحال.

المطلب الأول: في سياق قبول الصدقة ومنحها .

المطلب الثاني: في سياق تقدير لهجة المخاطب ولغته.

المطلب الثالث: في سياق خطاب الأتباع والمخالفين والمخطئين.

المطلب الرابع: في سياق العظة و الحث على صلة الرحم وحسن العشرة.

المطاب الخامس: في سياق التأثير والإقناع.

المطلب السادس: في سياق التغاضي عن بعض الأولويات تقديرا لحال المخاطب.

المطلب السابع : تباين المقامات قوة وهدوءا تقديرا لحال المخاطب.

المبحث الثاني:تنوع الخطاب النبوي تقديرا لما بين المخاطبين من فروق وإمكانات.

المطلب الأول: تنوع الخطاب النبوي بتنوع جنس المخاطب.

المطلب الثاني: تنوع الخطاب النبوي في الوصية بتنوع حال المخاطب.

المطلب الثالث : تنوع الخطاب النبوي في الفتوى بتنوع حال المُسْتَفْتِي .

المطلب الرابع: تنوع الخطاب النبوي تبعا لمكانتة المخاطب.

المطلب الخامس: تنوع تكليفات النبي(ﷺ)وتحديد المهام بتنوع أحوال المخاطبين وقدراتهم.

المطلب السادس: تنوع الخطاب النبوي في أجوبته بتنوع حال السائل.

يسبق هذين المبحثين مقدمة، وتمهيد، أما المقدمة فقد كَشَفَتْ عن أهمية الموضوع، وأسباب دراسته، والمنهج المتبع في هذه الدراسة وخطتها.. وأما التمهيد فقد بُني على بيان أهمية مراعاة مقتضى الحال ، ثم التعريف بالخطاب،. ثم تلت هذه المباحث خاتمة، مؤكدة ما ذهبت إليه الدراسة، ومعززة له، ومشتملة على النتائج، وأعقبتُ الخاتمة بقائمة المصادر والمراجع التي استندت إليها في إنجاز هذا البحث.

وختاما: فهذا جهد متواضع أقدمه للبلاغة العربية، وكلي أمل في الله أن يحظى بالرضا والقبول، ولعلي قد أصبت فيما عرضت، والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد، وأن يجعله خالصا لوجهه سبحانه، وشفيعا لنا يوم نلقاه، وحجة لنا لا علينا، كما أسأله سبحانه أن يلهمنا دائما القول النافع، والعمل الصالح، وحسن الخاتمة، وأستغفره مما طغى به القلم، أو زل به الفكر، إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التمهيد

أولا: أثر مراعاة مقتضى الحال في تحقيق قوة الاتصال وتنوع الخطاب:

إن من "أبرز الملامح في النظر البلاغي أنه قام على اشتراط موافقة الكلام لمقتضى الحال، واستشعر المقولة السائرة (لكل مقام مقال)، ورصد على وجه التفصيل ما يكون من تأثير السياق ـ سياق الحال خاصة ـ وهي حال المتكلم والمخاطب، وسائر ما يأتلف منه المقام، ورصد ما يكون من تأثيرذلك في تشكيل الكلام، وتأليفه على هيئات في القول تتنوع وفقا لتنوع المقامات" (١).

وبهذا يجعل من مقتضى الحال الأصل الذي تقوم عليه مباحث علم المعاني بخاصة وعلم البلاغة بعامة.. ولذا كان لزاما على المتكلم أن يراعي مقامات الأحوال، وسياقاته، وقرائنه عند التعبير عن مقاصده ومعانيه، حتى يضمن لها الانتهاء إلى السامع؛ ليحظى بدرجة اتصال عالية بالمخاطب، ويضمن وصول مقصده، وتتحقق الفائدة لدى المخاطب.

وفي المقابل يستند المتلقي إلى المقام وقرائن الأحوال في البحث عن مقصد المتكلم والغرض من كلامه.. فمن المُسَلم به أن كل نص لغوي له أدوات وخواص تركيبية يضاف إليها ما يحيط النص من أحوال وقرائن تساعد في عملية الاتصال، وتعاون المتلقي في الكشف عن أبعاده؛ لأن "كل متكلم باللغة إنما يهدف بكلامه إلى غرض ما وينحو في كلامه نحو مقصد ما، فإن كلامه يحمل غرضه ومقصده في ثناياه ويصبح الدورالأساس للمتلقي هنا أن يقوم بعملية في اتجاه معاكس، خائضا في نص الكلام ليصل إلى المتلقي" (٢).

---

(١) نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د. نهاد الموسي: ٨٧ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٠م.

(٢) معالجة المعنى في التراث الفكري العربي، د. خالد عبد الرؤف الجبر: ١١٤ المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية ـ الكويت، العدد(٩٠) لعام ٢٠٠٠م.

وقد شاع في مؤلفات البلاغيين القدامى والمحدثين مفاهيم (مراعاة المتكلم، والمخاطب، والسياق، ومقتضى الحال أو المقام)، ولا غرو في ذلك؛ لأن الغاية الكبرى عندهم هي الكشف عن معاني النص القرآني، وفهم تراكيبه، وأسرار إعجازه، فاهتموا بالسياق وكل ما يحيط بالنص، من ظروف وملابسات، فالسياق هو المحدد للمعنى(١)، وهنا تظهر أهمية السياق، لأنه لا يظهر تفاضل للألفاظ المفردة إلا من خلال تركيب، ولا تكون لها الأفضلية إلا بملاءمة معناها لمعنى التي تليها، وبهذا تقترب فكرة النظم عندالإمام عبد القاهر من فكرة السياق اللغوي، نجد ذلك في قوله: "فلو كانت الكلمة إذا حسُنَت حسُنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبَبُ في ذلك حالُ لها مع أخواتها المجاورةِ لها في النظم، لَمَا اختلف بها الحال ولكانت إما أن تحسن أبدا أو لا تحسن أبدا"(٢).

والإمام عبد القاهر في بحثه لهذه الظاهرة يؤكد على أن أي بناء بليغ ينبغي أن يخضع في بنائه للمعنى والسياق، وكل ما يحيط النص من ملابسات وأحوال، وكان بحثه لهذه الظاهرة بحثا أسلوبيا استند فيه إلى تحليل بعض النصوص القرآنية والشعرية عندما بحث علاقاتها التركيبية في السياق، وتعاضدها في إنتاج الدلالة، مع التعليل للظاهرة البلاغية، ولم يقتصر على التعليل للظاهرة من ذكر، وحذف، وتقديم وتأخير... الخ، وإنما تعمق في دراسة الفروق الدلالية لهذه الأساليب بحسب سياقاتها وما يستدعيه الحال، منها: تفريقه بين تقديم الاسم وتقديم الفعل، ومجئ همزة الاستفهام للتقرير بالفعل، والتقرير بالفاعل، كما في قوله تعالى: { قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾}(٣) [الأنبياء: ٦٢].

(١) ينظر: اللغة والمعنى والسياق، جونز لاينز: ٢٢٢، تر: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ١٩٨٧م.

(٢) دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني: ٤٨، تح: د. محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ـ دار المدني بجدة، ط: ثالثة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م..

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز: ١١٣.

وتحقيق هذه الفائدة من الكلام يعد غرضا تواصليا مهما على المتكلم مراعاته، ويكون من خلال مراعاة مقامات الكلام بحسب حال المخاطب، من حيث كونه خالي الذهن، أو سائلا، أو منكرا.. فإذا كان المخاطب خالي الذهن من مضمون الخبر يساق إليه الخبر خاليا من التأكيد، لأن متلقيه لا يستدعي تأكيدا، ولذا يتقبله ويستحسنه، وتتحقق الفائدة، أما إذا كان المخاطب مترددا أو شاكا في مضمون الخبر وجب على المتكلم أن يراعي ذلك لتتحقق الفائدة، فيؤكد كلامه بمؤكد واحد يقطع الشك باليقين ويقنع المخاطب بالخبر، أما إذا كان المخاطب منكرا لمضون الخبر فيستلزم ذلك أن يحشد المتكلم عددا من التأكيدات تختلف باختلاف درجة الإنكار؛ حتى يأنس المخاطب ويتقبل الخبر.. وحتى عند كسر هذه القاعدة والخروج بالكلام على خلاف مقتضى الظاهر، لا يساق الخبر للمتلقي بحسب الحالات السابقة، وإنما يخرج عليها لاعتبارات نفسية كذلك.

فمهمة علم المعاني دراسة مدى نجاح المتكلم في تحقيق المطابقة بين خواص تراكيب الكلام . التي سماها عبد القاهر معاني النحو . ومقتضى الحال، اعتمادا على مرجعية لغوية مشتركة بين المتكلم والمخاطب، فإذا تحققت المطابقة أفاد المخاطب معنى واستحسنه وقنع به، وذلك لأن وظيفة علم المعاني تزيد عن وظيفة النحو ثلاث مراتب، زيادة الفائدة والاستحسان والإقناع(١).

ومن المسلم به أن أي خطاب بليغ يخضع في تشكيله لمجموعة من العناصر، من أبرزها: ١-المؤلف: وهو منشئ الخطاب، ٢-المخاطب: وهو المتلقي للخطاب، ٣- السياق: وهو الظرف أو الموقف أو الحال الذي صدر فيه الخطاب، ويشمل كل ما يحيط النص من الاعتبارات والظروف والملابسات التي توجه المتكلم في خطابه. ٤- النص:

(١) ينظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، د. محمد العمري: ٤٩٢، أفريقيا الشرق(المغرب . لبنان)، ط: أولى ١٩٩٩ م.

وهـو عنصـر مهـم مـن عناصـر التواصـل، يتـأثر بالمقـام الـذي ورد فيـه، وحـال المـتكلم والمخاطب، فضلا عن الغرض منه، يقول ابن قتيبة: "وهذا ـ يعني الإيجاز ـ ليس بمحمود في كل موضع، ولا بمختار في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، ولوكان الإيجاز محمودا في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام... وليس يجوز لمن قام مقامًا في تحضيض علي حرب، أو حمالة بدم أو صلح بين العشائر أن يقلل الكلام ويختصره، ولا لمن كتب إلى عامةٍ كتابا في فتحٍ أو إستصلاحٍ أن يوجز" [(١)].. فالنص الأدبي رسالة من مبدع، يرسلها إلى مخاطب يستقبلها في سياق معين، عبر وسيلة اتصال معينة، بحسب نظام لغوي متعارف عليه بين المبدع (المرسِل) والمستقبل(المرسل إليه) [(٢)].

فالأسلوب يتشكل من هذه العناصر جميعا، ولا يستأثر به عنصر دون آخر، وأن إهمال أي عنصر منها يعد تفريطا لا يعين على أداء الخطاب البليغ، فينبغي مراعاة هذا كله في الخطاب البليغ، ومرد ذلك إلى قدرة المتكلم على رعاية مقتضى الحال.. وعلى ضوء هذه الرعاية تكون بلاغة المتكلم؛ لأن اللغة نظام تواصلي ترابطي ينبثق من المسافة بين المتكلم والمخاطب، ولا يمكن لأي خطاب أن يؤدي غرضه ما لم يكن معنيا بهذه العناصر جميعا، ومدى إدراكه للمعطيات التواصلية، ولذا ركز د. نهاد الموسي على عناصر التواصل.

(١) أدب الكاتب، لابن قتيبة: ١٩ –٢٠، تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة . بيروت، ط: أولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م.

(٢) ينظر: نحو نظرية أسلوبية لسانية، فيلي ساندرس: ١٢٥ ـ ١٢٧، تر/د. خالد جمعة، دارالفكرالمعاصر. دمشق، ط: أولى١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

ثانيا: مفهوم الخطاب:

الخطاب في اللغة: جاء في لسان العرب في مادة (خـ ط ب) "الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان"(١).

وجاء في المعجم الوسيط: خاطبه مخاطبة، وخطابا: كالمه وحادثه، ووجَّه إليه كلاما، ويقال: خاطبه في الأمر: حدثه بشأنه، وتخاطبا: تكالما وتحادثا.. وفي التنزيل العزيز: {فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾} [ص: ٢٣]، والخطاب: الكلام و الرسالة(٢).

والخطاب في أساس البلاغة من "خطب، خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام، وخطب الخطيب خطبة حسنة، وما خطبك، ما شأنك الذي تخطبه، ومنه هذا خطب يسير، وخطب جليل"(٣).. ويقول بن فارس:"الخطاب كل كلام بينك وبين آخر"(٤).

ومما سبق يبدو لنا جليا أن الجذور اللغوية لكلمة (خطاب) تدل علي الإبانة والإفهام.. كما نتبين أن مادة (خطب) ومشتقاتها تدور حول: ١-المواجهة بالكلام ومراجعته، ٢-الشأن والأمر الذي تقع فيه المخاطبة.. كما يلاحظ علي هذه التعريفات أنها أكدت علي خاصية التفاعل في إنتاج الخطاب، والمشاركة بين طرفين [متكلم وسامع]، إذ المخاطبة: صيغة مبالغة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل له شأن، يقول الكفوي: "خاطبه، وهذا الخطاب له.... اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه" (٥).

---

(١) لسان العرب، لابن منظور: مادة(خطب) ، دار إحياء التراث العربي (بيروت - لبنان)، ط: ثالثة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

(٢) ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بمصر: ٢٤٣، مكتبة الشروق الدولية ط: رابعة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٣) أساس البلاغة، للزمخشري: خطب، تح: محمد باسل، دار الكتب العلمية (بيروت - لبنان)، ط: أولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(٤) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: خطب،تح: عبد السلام هارون،دار الفكر ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.

(٥) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) للكفوي: ٤١٩، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة (بيروت - لبنان)، ط: أولي ١٩٩٢م.

واحتياج الخطاب إلى وجود طرفين هو ما أقر به إميل بنفنست حين عرف الخطاب بأنه "كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا وعند الأول هدف التأثير علي الثاني بطريقة ما"[(١)].. وكلام (بنفنست) يهدف إلى بناء علاقة تأثيرية بين مبدع الخطاب ومتلقيه وفق استراتيجية أو طريقة يتبناها منتج الخطاب و تعينه علي التأثير في المتلقي؛ لأن حد الخطاب أنه كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا[(٢)].

والخطاب في اللغة العربية أو الأجنبية عماده ركنان أساسيان، وطرفان أصيلان، الأول: مخاطِب، والثاني: مخاطَب، وربما "يتحاوران في شكل حديث حر؛ فيقال حينئذ: أنهما يتخاطبان، فيُفهم أحدهما الآخر عن طريق البينة وفصل الخطاب" [(٣)].

ويبدو ما في هذا التعريف من إشارة إلى ما للأسلوب، وتنظيم القول من أهمية في بناء الخطاب.

وقد ورد ذكر لفظ (خطاب) في القرآن الكريم بلفظ الفعل، كما في قوله تعالي: { بى تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾} [هود: ٣٧]. يقول الطبري في معناه: "ولا تسألني في العفو عن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم من قومك، فأكسبوها تعديا منهم عليها بكفرهم بالله الهلاك بالغرق"[(٤)].. وورد بلفظ المصدر في قوله تعالي: {ٹ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي

(١) تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين: ١٩، المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ بيروت، ط: ثالثة ١٩٩٧م.

(٢) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن: ٢١٥. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي(الرباط ـ المغرب)، ط: أولي ١٩٩٨م.

(٣) مفهوم الخطاب في النظرية النقدية، عبد الرحمن حجازي: ١٢٤ مجلة علامات في النقد ـ النادي الأدبي الثقافي ـ جدة، مج (١٥)، ج(٥٧)، رجب ١٤٢٦هـ ـ سبتمبر ٢٠٠٥م..

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري): ٣٩٣/١٢، تح/ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾} [ص: ٢٣]. قال الرازي في معناه: "وَالْمَعْنَى جَاءَنِي بِحِجَاجٍ لَمْ أَقْدِرْ أَنْ أُورِدَ عَلَيْهِ مَا أَوْرَدَهُ بِهِ، وَقُرِئَ وَعَازَنِي مِنَ الْمُعَازَةِ، وَهِيَ الْمُغَالَبَةُ" (١).

وفـي قولـه تعـالي: {وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾} [ص: ٢٠]، فُسر(فصل الخطاب) بـ "لَمَّا بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَالَ حَالِ جَوْهَرِ النَّفْسِ النُّطْقِيَّةِ الَّتِي لِدَاوُدَ بِقَوْلِهِ: وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ أَرْدَفَهُ بِبَيَانِ كَمَالِ حَالِهِ فِي النُّطْقِ وَاللَّفْظِ وَالْعِبَارَةِ فَقَالَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ وَهَذَا التَّرْتِيبُ فِي غَايَةِ الْجَلَالَةِ،... لِأَنَّ فَصْلَ الْخِطَابِ عِبَارَةٌ عَنْ كَوْنِهِ قَادِرًا عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ كُلِّ مَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ ويحضر في الخيال بحيْثُ لَا يَخْتَلِطُ شَيْءٌ بِشَيْءٍ، وَبِحَيْثُ يَنْفَصِلُ كُلُّ مَقَامٍ عَنْ مَقَامٍ، وَهَذَا مَعْنَى عَامٌّ يتناول جميع الأقسام" (٢).

وهـذه المعـاني الـواردة مـن السـؤال والـدعاء والقـدرة علـي التعبيـر هـي متطلبـات للمخاطبـة، وبـذلك يكـون مـا ورد عـن المفسـرين فـي معـاني الخطـاب مـن أنـه الكـلام، والمحادثة الموجهة من شخص إلى آخر مناسب عند أهل اللغة في معني الخطاب.

مفهـوم الخطـاب فـي الاصطـلاح:

تعود جذور مصطلح الخطاب من المنظور الأدبي إلى عنصري اللغة والكلام(٣).

أ- فاللغة نظام من الرموز يستعملها كل فرد للتعبير عن أغراضه، لأن هذه الرموز تكون علي شكل أصوات تُنطق أو حروف تُكتب.

ب - أما الكلام: فهو إنجاز لغوي فردي يتجه به المتكلم إلى شخص آخر هو المخاطب، وبذلك فإن مصطلح [خطاب] يشترط وجود متكلم ومستمع، باعتباره رسالة لغوية من الباث إلى المتلقي، فيستقبلها الأخير ويفك رموزها.

---

(١)التفسير الكبير(مفاتيح الغيب)،الرازي:٢٦/٣٨٤،دار إحياء التراث العربي بيروت،ط:٣-١٤٢٠هـ.

(٢) السابق: ٢٦/٣٧٦ - ٣٧٧.

(٣) ينظر: دروس في الألسنة العامة، فيردينان دي سوسير: ٢٧، تر: صالح القرمادي وآخرون، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس ١٩٨٥م.

وقد عرفه باتريك شارودو بعدة تعريفات [١]، منها: أن الخطاب يمثل وحدة لسانية مكونة من جمل متعاقبة، ومنها: أن الخطاب هو استعمال الناس لعلامات صوتية مركبة لتبليغ رغباتهم أو آرائهم في الأشياء. كما يتصور الخطاب باعتباره إقحاما للنص في مقامه وظروف إنتاجه وتقبله.

والملاحظ علي هذه التعريفات تركيزها علي الجانب الشكلي للخطاب، حيث يتركب من جوانب صوتية وجمل متعاقبة.. كما نبهت إلى قيمة المقام وظروف إنتاجه، فضلا عن التنبيه إلى غايته، وهو الإبلاغ الذي يستدعي طرفيه، (مبلِغا، ومتلقيا) بهدف تأثير الأول في الثاني.

ويري بعض العلماء أن الخطاب يعد من أبرز الظواهر التي تحرر طرق الاتصال، وتضبط بِنْية التغيير، وتنحت الأهداف المنشودة [٢].

ولعل علماء الأصول هم أكثر من رددوا الحديث عن معني (الخطاب) لدي بحثهم عن الحكم الشرعي؛ لأن في معرفة معني الخطاب فائدة في معرفة الحكم الشرعي.. وعرفه بعض الأصوليين بأنه: "الكلام الذي يَفْهَم المستمع منه شيئا" [٣]، واعترض عليه الآمدي لعدم دقته؛ لأنه "غير مانع؛ فإنه يدخل فيه الكلام الذي لم يقصد المتكلم به إفهام المستمع، فإنه علي ما ذكر من الحد وليس خطابا" [٤]، وعرفه بـ "أنه اللفظ

(١) ينظر: معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو: ٣٤، ٣٥، تر: عبد القادر المهيري وغيره، منشورات دار سيناترا ـ المركز الوطني للترجمة ـ تونس(د. ت).

(٢) ينظر: في تحديد مفهوم الخطاب، د. كمال عمران: ٦٢، المجلة العربية للثقافة ـ تونس ـ عدد [٢٨ ـ مارس ـ سبتمبر] ١٩٩٥م..

(٣) نهاية الأصول في دراية الوصول، الصفي الهندي: ٥٠/١، تح: د. صالح بن سليمان اليوسف وغيره، المكتبة التجارية ـ مكة المكرمة، ط: أولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

(٤) الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي: ٩٥/١، تح: عبد الرازق عفيفي، المكتب الإسلامي(دمشق ـ بيروت) ، ط: ثانية١٤٠٢هـ.

المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه" [١]، وعرفه غيره بأنه "لون من ألوان القول يحشد له الخطيب من الأساليب ما يمكنه من التأثير في سامعيه وجذبهم بما سوَّق من الحجج والبراهين المقنعة"[٢].

ولعل التباين في تحديد مفهوم الخطاب يعود في الأصل إلى كونه ينتمي إلى أكثر من حقل معرفي واتجاه بحثي كالمنظور الاجتماعي، والمنظور اللساني، والمنظور الأيدلوجي، وغيرها من الاتجاهات البحثية المعاصرة، ففي تعريف بنفست للخطاب، بأنه "الملفوظ منظورا إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل" [٣] يظهر المنظور التواصلي جليا.. وتعريف الخطاب بأنه "مجموع خصوصي لتعابير، تتحد بوظائفها الاجتماعية ومشروعها الأيديولوجي" [٤] يظهر الأثر الأيديولوجي للخطاب.

كما عرفه هاريس مراعيا العلاقات المشتركة بين اللغة والثقافة والمجتمع في قوله: "ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل تكون منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية، وبشكل يجعلنا في مجال لساني بحت" [٥]، وعرف الملفوظ بأنه كل جزء من أجزاء الكلام يقوم به متكلم، ويعد كلاما منجزا ووحدة دلالية[٦].

وهكذا يبدو لنا أن الاختلاف في تحديد مفهوم الخطاب مرده إلى كثرة الحقول البحثية، وتعدد اتجاهاتها.. غاية الأمر أننا نحاول الآن أن نضع حدا وضابطا للخطاب بشكل عام يظهر فيه الأثر الإبلاغي، وقيمته في التواصل.. وهنا يفرض تعريف المرجاني نفسه؛ لقربه من مجال بحثنا في البيان النبوي الشريف. حيث عرفه بقوله:

---

(١)الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي: ٩٥/١.

(٢)فقه الدعوة إلى الله، د.علي عبد الحليم محمود:١٦٩/١،دار الوفاء، ط: ثانية١٤١١هـ .١٩٩٠م.

(٣) تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين: ١٩.

(٤) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، د. سعد علوش: ٨٣، دار الكتاب اللبناني (بيروت . بنان)، ط: أولى١٤٠٥هـ . ١٩٨٥م.

(٥) السابق: ١٧.

(٦) ينظر: السابق: نفسه.

"هو المبحوث عنه في علم الأصول مما يقع به التخاطب ويصح فيه التساؤل والتجاوب، ويمكن توجيهه للإفهام وبيان المقصد والإفهام، وذلك إنما هو خطابات الله تعالي التي تضمنها كتابه الكريم، وحديثه (ﷺ) الشريف، وخطاب النبي لمن بلغه من الموجودين وقت النزول وورود الوحي، ومن يوجد بعده بلا فراق"(١).

ومن التعريفات التي فصلت تعريفات الأصوليين المتقدمين منهم والمعاصرين، وجمعتها، تعريف الدكتور طه عبد الرحمن في قوله: "إن المنطوق به الذي يصلح أن يكون كلاما، هو الذي ينهض بتمام المقتضيات التواصلية الواجبة في حق ما يسمي خطابا، إذ حد الخطاب أنه كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا" (٢).

وهو بذلك يركز على المنطوق دون غيره، محاولا بذلك إخراج لفظ الخطاب من كل ما يعتمد علي الحركة والإيحاء والإشارة كوسائل للإفهام، وكذلك كل كلام لا يقصد به في الأصل إفهام السامع، فالخطاب إما كلام لفظي، أو كلام نفسي موجه نحو الغير للإفهام(٣).

وعندما نسلم بأن عماد الخطاب هو التواصل، فإن اللغة هي السبيل الوحيد الذي يحققه، ولذا لا يمكن اعتبار أشكال التواصل الأخري خطابات، لأن الشرط اللغوي غير متحقق فيها، ومعلوم أن أي خطاب هو حديث لغوي في الأصل؛ ولذا جعل الأصوليون الخطاب والكلام يدلان علي مقصود واحد، ومن هنا كان تعريف الدكتور/طه عبد الرحمن جامعا ودقيقا؛ لاستبعاده كل الرموز الدالة الأخري التي يغيب عنها التحقق الصوتي.

(١) سلم الوصول لشرح نهاية السول،للشيخ محمد بخيت:٥٥٨،دار الفاروق للنشر ٢٠٠٠م.

(٢) اللسان والميزان، طه عبد الرحمن: ٢١٥.

(٣) ينظر: الخطاب الإعلامي وإدارة الأزمات السياسية الدولية، جليل وادي حمود: ٣٨، أطروحة دكتوراة، كلية الأداب . جامعة بغداد . ٢٠٠٠م.

كما ركز د. طه عبد الرحمن في تعريفه على الوظيفة التواصلية للغة، فلا ينظر لها علي أنها مجرد منظومة من الرموز، وإنما أصبحت خطابا يتشكل لحدوث تواصل بين متكلم ومستمع، وهو بهذا يؤكد علي أهمية التواصل بتتبعه مسارات المرسل عبر السياق، مفرقا بين المرسِل، والمرسَل إليه.

ولا يمكن هنا أن نغفل رأي (بنفست) في تعريفه للخطاب بأنه "كل منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ ومستمع، وفي نية الراوي التأثير علي المستمع بطريقة ما" (١).

وإذا ما لاحظنا قول د. طه عبد الرحمن في الخطاب "موجه إلى الغير بقصد الإفهام"، نجد اتفاقه مع بنفست في التأكيد علي قصد الشأثير في المستمع، وهذه القصدية تلمح دائما إلى الإقناع والشأثير الذي لا يقع إلا بوجود انسجام وتوافق بين المبدع والمتلقي .. فالخطاب يشتمل علي جملة من الملفوظات التي تنتظم في سلك من التعابير تنتج دلالة ما وتترك أثرا محققا، وتتفاعل مع المجال الاجتماعي الذي يتلقى هذا الخطاب، ويصطدم بفكر المخاطب في محاولة لإقناعه، فالخطاب وسيلة المتخاطبين في توصيل الغرض الإبلاغي من المخاطِب إلى المخاطَب، ويتسم بأنه كتلة بنيوية واحدة متماسكة الأجزاء (٢).

ومن المهم التأكيد علي ارتباط الخطاب الوثيق بظروف إنتاجه، فلا يعد الخطاب خطابا إلا إذا ارتبط بكل ما يحيط به من ظروف اجتماعية وثقافية، لأن الخطاب يمثل "وحدة اتصال مرتبطة بظروف إنتاج معينة" (٣).

وإذا اتفقنا على أن كل مرسل ينتج خطابه بمراعاة سياقات معينة، وألفاظ تناسب الموقف أدركنا أن كل نص هو نتيجة استراتيجية خطابية تراعي فيها السياقات المصاحبة

---

(١) اللغة والخطاب الأدبي، سعيد الغانمي: ٤٨، المركز الثقافي العربي، ط: أولي ١٩٩٢م.

(٢) ينظر:وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية(دراسة حول المعنى وظلال المعنى)،د.محمد يونس علي: ١٣٥، منشورات جامعة الفاتح، (طرابلس ـ لبنان) ١٩٩٣م.

(٣) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو: ٦٥، تر: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، ط: أولى ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م.

لعمليـة إنتـاج الـنص، مثـل مقاصـد المـتكلم وزمـان ومكـان الـتلفظ، والعلاقـة بـين المخاطِـب والمخاطَب، مما يشير إلى أن الخطاب المنجز يكون مخططا له بصفة مستمرة وشعورية[١].

وباستقراء التعريفات السابقة يمكن أن نستخلص منها تعريفا جامعا للخطاب، بأنـه لـون من ألوان القول مرتبط بظروف إنتاجه ينهض بتمام مقتضيات التواصل بقصد الإفهام والإقناع.

وإذا وضـعنا هـذا التعريـف بـإزاء التعريفـات الأخـري يمكـن لنـا أن نسـتخلص جملـة مـن السمات العامة التي جمعت هذه التعريفات علي كثرتها، ومنها:

* أن الاتصال قيمة عليا، وغاية أصيلة لكل خطاب.

* أن القصدية تعد من أبرز الأركان التي يقوم عليها مفهوم الخطاب.

* يعد الأثر الاجتماعي للخطاب من أهم محاوره ومقاصده الأساسية.

* الخطاب كتلة بنيوية تتكون من عدد من المنطوقات.

* لـيس للخطـاب حـد أعلـي، ففـي الحـد الأدنـي يمكـن أن تكـون الوحـدة كلمـة مفـردة (قـف)، وفي الحد الأعلي تكون هذه الوحدة مفتوحة.

* لكل خطاب نسق دلالي وأثر إبلاغي، وغاية إقناعية[٢].

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب، د. عبد الهادي بن ظفر الشهيري: ٥٦، دار الكتاب الجديدة المتحدة ـ بيروت، ط: أولى ٢٠٠٤م.

(٢) ينظـر: الفلسـفة واللغة(نقـد المنعطـف اللغـوي فـي الفلسـفة المعاصـرة)، د. الـزواوي بغـورة: ١٥٧ـ١٦٠، دار الطليعة بيروت، ط: أولى ٢٠٠٥م.

المبحث الأول

تنوع الخطاب النبوي في السياقات المختلفة بتنوع مقتضى الحال.

المطلب الأول: -

في سياق قبول الصدقة ومنحها

تنوع الخطاب النبوي في الصدقة بين القبول والرفض، فتارة يقبل الرسول (ﷺ) صدقة الشخص بكل ماله، وتارة يقبل بعض المال فقط، وتارة يرد الصدقة، وفي حالتي القبول والرفض يراعي حال المخاطب.. تأمل ما رواه أبو سعيد الخدري(رضي الله عنه)، قال: جاء رجل يوم الجمعة، والنبي (ﷺ) يخطب. بهيئة بذة. فقال له رسول الله: "أصليت؟ " قال: لا، قال: صل ركعتين، وحَثَّ الناس على الصدقة، فألقوا ثيابا، فأعطاه منها ثوبين، فلما كانت الجمعة الثانية جاء ورسول الله يخطب، فحث الناس على الصدقة، فقال: فألقى أحَدَ ثوبيه، فقال رسول الله (ﷺ): "جاء هذا يوم الجمعة بهيئة بذة، فأمرت الناس بالصدقة، فألقوا ثيابا، فأمرت له منها بثوبين، ثم جاء الآن، فأمرت الناس بالصدقة، فألقى أحدهما"، فانتهره، وقال: "خذ ثوبك" [(١)].

فالرسول (ﷺ)منع الرجل من التصدق بثوبيه وانتهره، مراعاة لما عليه حاله من الفقر الشديد، ولكونه أحق بثويه، لكونه أشد احتياجا له من غيره، قال العيني: "ومما يستفاد منه كراهة صدقة المحتاج، وأنها لا تستحب إلا عن ظهر غنى... " [(٢)].

كما لم يسمح الرسول (ﷺ) لكعب بن مالك أن يتصدق بكل ماله، وأمره أن يمسك بعضه، ففي حديث كعب بن مالك، قال: قلت يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله، وإلى رسوله (ﷺ)، قال: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، قال: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر "[(٣)].

---

(١)أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب(مواقيت الصلاة)،باب(إذا رأى الإمام رجلا جاء وهو يخطب أمره أن يصلي ركعتين)،رقم(٩٣٠).

(٢) نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار،بدر الدين العينى:٦/ ٢٦، تح: أبو تميم ياسر بن إبراهيم،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر، ط: أولى١٤٢٩هـ –٢٠٠٨م.

(٣)أخرجه البخاري في كتاب(الوصايا)، باب(إذا تصدق أو وقف بعض ماله فهو جائز)،ح(٢٦٠٦).

كان من شدة فرح كعب بن مالك برضا الله عنه، وقبول توبته أنه أراد أن يتصدق بكل ماله لوجه الله . تعالى .، غير أن النبي (ﷺ) أمره أن يمسك بعض ماله؛ خوفا من أن يكون التصدق بكل ماله شاقا علي نفسه، لاسيما وقد قرر ذلك أثناء الفرح الشديد بقبول التوبة، ولذا منعه من التصدق بكل ماله؛ ليقوم بمصالحه، ونفقاته الواجبة من مؤونة نفسه، ومؤنة من يعول، فما نقص عن كفايته وحاجته لا يجوز التصدق به[1].

وفي ذلك مراعاة لحال كعب بن مالك، فلم يقبل كل ماله خوفا عليه من الفقر وعدم الصبر، بينما قبل (ﷺ) من أبي بكر(رضي الله عنه) أن يتصدق بكل ماله، وذلك فيما رواه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: أمرنا رسول الله(ﷺ) يوما أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله(ﷺ): "ما أبقيت لأهلك؟ "، قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر(رضي الله عنه) بكل ما عنده، فقال له رسول الله (ﷺ): "ما أبقيت لأهلك؟ "قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيئ أبدا" [2]، فـ "لم يكن (ﷺ) يتعامل مع الراغبين في الإنفاق في سبيل الله . تعالى . على وتيرة واحدة، فمنع صحابيا من التصدق بأحد الثوبين الذَيْن قد تُصُدق بهما عليه، وأخبر(ﷺ) أحد الراغبين في الانخلاع من ماله كله صدقة لله ورسوله، أنه يجزيه الثلث، كما أمر(ﷺ) غيره الذي أبدى مثل رغبته أن يمسك عليه بعض ماله، ولكنه (ﷺ) قد وافق على تصدق الفاروق (رضي الله عنه) بنصف ماله، ولم يعترض على إتيان الصِديق (رضي الله عنه) بكل ما كان عنده للإنفاق في سبيل الله" [3].

فالنبي (ﷺ) لم يكن يتعامل مع الراغبين في النفقة بكل مالِهم على طريقة واحدة، بل كان ينوع، فيجيز لمن عرف قوة يقينه وصبره، ولا يجيزه لمن أدرك أنه سيُشَقُ عليه ذلك.. وهذا ما يفسر عدم السماح لكعب بن مالك من أن يتصدق بكل ماله، في حين

(١) ينظر: منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري: ٢١/٥. م

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب (الزكاة)، باب (في الرخصة في ذلك)، رقم(١٦٧٨)، تح: أحمد سعد علي، ط: مصطفى البابي الحلبي . مصر، ط: ثانية١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م

(٣) من صفات الداعية مراعاة أحوال المخاطبين في ضوء الكتاب والسنة وسير الصالحين، د. فضل إلهي: ١-٧، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع . الرياض ١٤١٧هـ .١٩٩٦م.

سمح بـه لأبـي بكـر(ﷺ)، مراعـاة لحـال كـل منهمـا، وهـو مـا يفسـر قبولـه (ﷺ) صـدقة عمر(ﷺ) بشطر ماله، بينما أجاز لغيره الوصية بالثلث فقط، وجعله كثيرا، فعن عَامِرِ بنِ سَعدٍ، عَن أَبِيهِ قَالَ: عَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ) فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ مِن وَجَعٍ أَشفَيتُ مِنهُ عَلَى المَوتِ، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: بَلَغَنِي مَا تَرَى مِن الوَجَعِ، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا بنَت لِي وَاحِدَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَي مَالِي؟ قَالَ: لَا. قَالَ: قُلتُ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطرِهِ؟ قال: الثُّلُثُ يا سعد، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَن تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغنِيَاءَ خَيرٌ مِن أَن تَذَرَهُم عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ... "(١).

وإذا كان الرسول (ﷺ) قد راعى حال المنفق، ومن يعوُلُهم في حديث عمر وأبي بكر وكعب بن مالك، فإنه قد راعى حال الورثة في حديث سعد بن أبي وقاص، فأجاز الوصية في أقل من الثلث، وجعلها الأفضل، وبَيَّن الرسول (ﷺ) له الحكمة في النزول بالصدقة من أكثر المال إلى أقله؛ حتى يترك ورثته أغنياء، منتفعين بماله وبره، فذلك خير من أن يدعهم يعيشون على إحسان الناس.

وحين أرسل رسول الله (ﷺ) معاذ بن جبل إلى اليمن منعه أن يأخذ كرائم أموالهم في قوله له: " إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ... "(٢)" فالرسول (ﷺ) ترك أخذ خيار المال، "وَالنُّكْتَةُ فِيهِ أَنَّ الزَّكَاةَ لِمُوَاسَاةِ الْفُقَرَاءِ فَلَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ الْإِجْحَافَ بِمَالِ الْأَغْنِيَاءِ إِلَّا إِنْ رَضَوْا بِذَلِكَ" (٣)، ونَهْي الرسول (ﷺ) معاذ بن جبل (ﷺ)عن أخذ خيار المال، جاء مراعاة لطبيعة النفوس والفطرة التي تميل إلى الاحتفاظ بالشيئ الثمين المحبب إليها.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب(فضائل الصحابة)، باب(اللهم أمض لأصحابي هجرتهم)،رقم(٣٧٢١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحة ، كتاب(الجنائز)، باب (أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا)،رقم(١٤٢٥).

(٣) فتح الباري: ٣/ ٣٦٠.

فلم يكن هذا التنوع في قبول الصدقة ومقدارها إلا مراعاة لأحوال المخاطبين، فـ "لم ينكر النبي (ﷺ) على أبي بكرالصديق (ﷺ) خروجه من ماله أجمع؛ لما علمه من صحة نيته وقوة يقينه، ولم يَخَف عليه الفتنة كما خافها على الرجل الذي رد عليه بيضة من الذهب"(١).

ومن ثم لم يكن تعامل النبي (ﷺ)مع المتصدقين الراغبين في الإنفاق في سبيل الله على طريقة واحدة، بل كان يتنوع تعامله معهم بين قبول كل المال، أو بعضه، أو رفضه؛ تبعا لحال كل منهم.

وكما راعى الرسول (ﷺ) أحوال الناس عند إنفاقهم والأخذ منهم، راعى كذلك حال المخاطبين عند التصدق عليهم، فتنوَّع العطاء النبوي تبعا لتنوع حال المخاطب، وكان الضابط في عطاء النبي (ﷺ) هو تأليف القلوب واستمالتها، وترغيبها في الدين الإسلامي، ولذا كان التنوع بين العطاء والمنع مبني على التفريق بين قوة الإيمان وضعفه، فقد راعى الرسول (ﷺ) ضعاف الإيمان ومن دخل في الإسلام حديثا، فجعل لهم سهما من الصدقات تأليفا لقلوبهم، ومن ذلك إيثاره (ﷺ)المهاجرين بالعطاء على الأنصار، فقال له سعد بن عبادة: "إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفئي الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيئ"،فكان مما قاله لهم:"أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟"(٢).

فالرسول (ﷺ) جعل إشباع شهوة المال المستحكمة في النفوس زماما يقود به بعض الناس إلى الإسلام، فبَذَلَ المال الذي أتاه الله إياه يتألفهم به، حتى ظهر جليا أنه

(١) معالم السنن: (شرح سنن أبي داود)، للخطابي: ٢/ ٧٨، المطبعة العلمية – حلب، ط: الأولى١٣٥١هـ – ١٩٣٢م.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم(١١٧٣٠)،

أسلوب بارز من أساليب الدعوة، فقد يُسْلِم الرجل للدنيا، فيجزل الرسول (ﷺ) لـه العطية، فـلا يلبث إلا قليلا حتى ينشرح صدره للإسلام، ويتمكن من قلبه الإيمان، فيكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما(١).

وأمارة ذلك، ما رواه أنس بن مالك: "أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ (ﷺ) غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ. فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ. فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ! أَسْلِمُوا. فَوَاللَّهِ! إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ". فَقَالَ أَنَسٌ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا. فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا (٢)، وما رُوي من أن الرسول (ﷺ) حين خرج من فتح مكة بمن معه من المسلمين، فاقتتلوا بحنين، فنصر الله دينه والمسلمين، وأعطى يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم، ثم مائة، ثم مائة، فقال صفوان: والله لقدأعطاني رسول الله (ﷺ) ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إلى، فما برح يعطيني حتى أنه لأحب الناس إلى "(٣).

فكان (ﷺ) يعطي من يخشى عليهم من الجزع، ويستميل أهل العداوات بالعطاء، ويتألف قلوبهم، لما جُبلت عليه النفوس من حب العطاء والهبات، ويمنع أهل البصائر واليقين، ويكلهم إلى إيمانهم.. ولذا كانت العطايا متفاوتة بتنوع حال المخاطب.. يقول ابن بطال: في الحكمة من هذا التفاوت: " إنما هي على وجه المصلحة، والسياسة لنفوس العباد الأمارة بالسوء، ألا ترى أنه (ﷺ) كان يعطي أقواما؛ ليداوي ما في قلوبهم من جزع، وكذلك المنع، هو على وجه الثقة...، وفيه استئلاف من يُخشى منه "(٤).. تأمل ما رواه عبد الله ابن مسعود (ﷺ) قال: لما كان يوم حنين، آثر النبي (ﷺ) أناسا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسا من أشراف العرب فآثرهم يومئذ في القسمة... " (٥).

---

(١) ينظر: دعوة النبي (ﷺ)للأعراب (الموضوع ـ الوسيلة . الأسلوب)،حمودة بن جابر الحارثي: ٢١٩دار المسلم، ط: أولى١٤١هـ . ١٩٩٨م.

(٢) صحيح مسلم، كتاب (الفضائل)، باب (ما سئل رسول الله (ﷺ)شيئا قط فقال لا)، رقم(٢٣١١).

(٣) صحيح مسلم، كتاب (الفضائل)، باب (سخائه . (ﷺ)، رقم (٢٣١٣) .

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال: ٢٠/ ٢١٤.

(٥)أخرجه البخاري في(فرض الخمس)،باب(كان النبي يعطي المؤلفة قلوبهم من الخُمس)،(٣٩٨١).

فالرسول (ﷺ) كان يعرف طباع المدعوين وأحوالهم، ويراعي نفوسهم، فكان يستألف صناديد العرب، ومن في خُلُقه شدة وغلظة بالعطايا والهبات، لما لها من أثر في تأليف قلوبهم، واستمالتها، فـ "المؤلفة قلوبهم أقسام: منهم من يعطَى ليُسلم، كما أعطى النبي (ﷺ) صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركا، ومنهم من يُعطَى ليحسن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافِهم مائة من الإبل، ومنهم من يُعطى لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يُعطى ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد" (١).

وفي ذلك يقول الرسول (ﷺ) عندما عَتَبَ عليه من منعه من العطاء: "أما بعد، فوالله إني لأعطي الرجل، وأدع الرجل، والذي أدع أحب إلى من الذي أعطي، ولكن أعطي أقواما لِما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكِلُ أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير.. "(٢).

ومن تنوع عطائه (ﷺ)أنه كان إذا قسَّم الفيئ ميز المتزوج في القسمة عن العزب الذي لا زوج له، قال عوف بن مالك (ﷺ): كان رسول الله إذا أتاه الفيئ قسمه من يومه فأعطى الآهل حظين وأعطى العزب حظا "(٣).. وهكذا كان عطاء الرسول (ﷺ) لا يسير على نسق واحد، وإنما كان يتنوع قلة وكثرة، منحا ومنعا، تبعا لحال المخاطب.. فكان يوسع في العطاء لمن أظهر إسلامه؛ تألفا، ولا يمنع أحدا إلا لأن المحروم أحب إليه ممن أعطى، لثقته في إيمانه.. وكان يعطي السيد في قومه دون غيره، وإن كان أفضل منه إيمانا؛ لما فيه من استجلاب قلوب أتباعه الذين يرضون إذا رضى رئيسهم(٤)، وهو من مراعاة أحوال المدعوين.

---

(١) فتح العلام في دراسة أحاديث بلوغ المرام، محمد بن علي بن حزام الفضلي البعداني: ١٩/٤-٢١، دار العاصمة(صنعاء. اليمن)، ط: رابعة١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب(الجمعة)، باب(من قال في الخطبة بعد الثناء أما بعد)، رقم(٨٨١).

(٣) مسند الإمام أحمد، رقم(٣٤٠٥).

(٤) ينظر: عمدة القاري: ١/ ١٩٥.

المطلب الثاني :-

في سياق تقدير لهجة المخاطب ولغته.

اتسم بيانـه(ﷺ)بالسـهولة والوضـوح، فكـان سـهل المأخـذ، قريـب المتنـاول، مهيـأ لأن يستوعبه السامع ويبلغه علي أكمل وجـه.. لأنـه من المعلوم أن الرسول (ﷺ) في صميم رسالته مبلـغ عن ربـه يـأمر الشـاهد بتبليـغ الغائـب، وكيـف يُبَلِّـغ الشـاهد إذا لـم يـع؟ ولكـي يعي لابد من الإيضاح الكاشف في القول، كيلا ينقل عنه غير ما أراد[١].

ومن هنا اتسم بيانه (ﷺ) بالإيضـاح والإشراق، وجـاءت ألفاظه طيعة منقادة، تصور ما بنفسه من أفكار واضحة، وذلك شرط أساسي في الكلام البليغ المؤثر، لأنـه بوضوحه يستطيع أن يصل إلى القلب في سرعة وسهولة.. وتلك خصيصة لم تكتمل في بيان أحد، مثلما اكتملت في بيانـه (ﷺ)، فنـادرا مـا يخلو شعر شاعر أو نثر نـاثر من المعاظلة[٢]، أو ضعف التأليف بأن لا يجري الكلام على النسق الذي يستعمله العرب كثيرا، كأن يعود الضـمير علـي متـأخر لفظـا ورتبـة مـثلا، وزيـادة مـا لحاجـة إليـه فـي الكـلام، وارتكـاب الضرورات، وضعف التأليف دليل علي عدم اكتمال آلة البيان[٣].

وهذا مـا بـرئ منـه بيانـه(ﷺ)في حروفه وكلماتـه وتراكيبـه.. ولا غرو فقد كـان أفصـح العرب، فقد قال: (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد)[٤]. كذا زكاه ربـه فنفي عنه التكلف،حين أمره أن يقول: {قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ}[ص: ٨٦]، فكـان يكـره التكلـف، وينهـى عـن التشـدق والثرثـرة، ويبـرئ مـن التعسـف فـي قولـه: (إن

(١) ينظر: البيان النبوي، د. محمد رجب البيومي: ٢٤٧، دار الوفاء، ط: ثانية ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

(٢) ينظر: المعاظلة: تداخل الشيئ في الشيئ، ينظر: لسان العرب: عظل.

(٣) ينظر: أسس النقد الأدبي عند العرب، د. أحمد أحمد بدوي: ٤٩٤، دار نهضة مصر للطباعة والنشر،القاهرة ١٩٩٦م.

(٤) مشكاة المصابيح للتبريزي، كتاب (البيوع) ، باب (العطايا) شرح رقم(٣٠١٦) ،تح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط: ثالثة ١٩٨٥م.

أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجالسا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون][1] .. فأجدر به ألا يأتي بالغامض والعويص، الذي يؤدي إلى الإلغاز والتعمية، كيف ذلك وكلامه قد "جل عن الصنعة، ونُزه عن التكلف.. وهجر الوحشيَ، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة... ولا يحتَّجُّ إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلَج، إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل المواربة... "[2]، وكيف له ألا يكره الغموض والتكلف والتفاصح، وهو يدل علي نفس بغيضة، وفطرة ملتوية؟!

وقد أكد النقاد أن التعقيد والتعمية وتعمدها يكسب المعني غموضا ملبسا، كما أن المعاني الغامضة لا تدل علي العمق والقوة قدر ما تدل علي العجز والعي؛ لأن المعنى إذا كان واضحا في نفس الكاتب انقادت له الألفاظ، وإذا كان غامضا في نفسه تعثر في التعبير عنه ولجأ إلى عبارات غامضه كمعانيه المبهمة يسطرها في جهد ومشقة[3].

ومع سهولة البيان النبوي ووضوحه إلا أنه يتأبى علي من أراد محاكاته، فضلا عن أنه يظل محتفظا بجدته وروائه رغم هذه السهولة؛ لأنه "بيان أفصح الناس نشأة، وأقواهم مذهبا، وأبلغهم من الذكاء والإلهام.. ولأنها حكمة النبوة، وتبصير الوحي، وتأديب الله، وأمر في الإنسان من فوق الإنسانية"[4].

قالت السيدة عائشة (ﷺ): "ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بينٍ فصلٍ، يحفظه من جلس إليه" [5].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (الجامع الكبير)، كتاب(البر والصلة)، باب(ما جاء في معالي الأخلاق)، رقم(٢٠١٨)، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر، ط: ثانية١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(٢) البيان والتبيين: ١٣/٢. والفلج: الظفر والفوز.

(٣) ينظر: البيان النبوي، د. محمد رجب البيومي: ٢٤٨.

(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفي صادق الرافعي: ٢٧١ بتصرف، مكتبة الإيمان ـ المنصورة، ط: أولي ١٤١٧هـ

(٥) صحيح البخاري في كتاب(المناقب)، رقم (٣٥٦٨)، تح: د. مصطفى ديب البغا الناشر: (دار ابن كثير، دار اليمامة) – دمشق، ط: خامسة١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

يقـول المـاوردي: "كـان مـن خصـال رسـول الله (ﷺ) أنـه أفصـح النـاس لسـانا، وأوضـحهم بيانـا، وأوجزهم كلامـا، وأجزلهم ألفاظـا، وأصـحهم معـاني، لا يظهـر فيـه هجنـة التكلف، ولا يتخلله فيهقة التعسف"(١).

ولا يقـدح فـي هـذه السـهولة وهـذا الوضـوح، ولا يتعـارض معـه ورود بعض الألفـاظ الغريبـة فـي بيانـه (ﷺ)؛ لأن هذا علـي تنـاثره وندرتـه فـي حديث الرسـول (ﷺ)ممـا أوحتـه الفطـرة، وتطلبـه الموقـف، واقتضـاه الحـال.. حيـث اضـطر (ﷺ)إليـه اضـطرارا، يكتـب بـه رسائله وعهوده إلى القبائـل النائيـة فـي بطون الجزيرة ممن لا ينطقون بلغة قريش، وهنـا ظهـرت قدرتـه البيانيـة الفائقـة، وكـان موضـع العجـب مـن أصـحابه؛ إذ يرونـه يفهـم عـن الغرباء ما لا يفهمون، ويحادثهم بمـا لا يستطيعون أن يقولوه، حتـي قـال لـه علـي بـن أبـي طالب: "يا نبي الله، نحن بنو أبٍ واحدٍ، ونشأنا في بلدٍ واحدٍ، ونراك تكلـم العرب بلسـان لا نفهـم أكثره، فقال (ﷺ): أدبني ربي فأحسن تأديبي، وربِّيتُ في بني سعد بن بكر"(٢).

تأمل كتابه إلى همدان، حين قدم وفدهم علـي رسـول الله(ﷺ)، منهم مالك بن نَمَط، فقام بين يديه، ثم قال: "يا رسول الله، نَصِيَّةٌ من همدان، من كل حاضرٍ وبادٍ، أتَوْكَ علي قُلُصٍ نَوَاجٍ، مُتصلةٌ بجبال الإسلام، لا تَأْخُذُهـم في الله لَومةُ لائـمٍ، من مِخْلافِ خَارِفٍ، ويامٍ، وشاكرٍ، أهلُ السُّودِ والقَوَدِ، أجابوا دعوةَ الرسولِ، وفارقُوا الآلِهَاتِ الأنْصَابِ، عهدُهُـم لا يُنقضُ ما أقامَتْ لَعْلَعٌ، وما جرى اليَعفُورُ بِصَلَعٍ" (٣).

---

(١) أعلام النبوة، الماوردي: ٢٢٥-٢٢٦، دار ومكتبة الهلال - بيروت، ط: أولى ١٤٠٩هـ.

(٢) جمع الجوامع (الجامع الكبير) للسيوطي٣٧٥/١٧، تح: مختار إبراهيم الهائج وآخرون، الأزهر الشريف - القاهرة، ط: ثانية ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري: ١١/١٨-١٢، دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة، ط: أولى ١٤٢٣هـ. والنصية من القوم خيارهم. وهمدان: من عرب اليمن. القلص: جمع قالص، وهي من الإبل الشابة أو الباقية على السير، والنواجي: جمع ناجية، وهي المسرعة في السير. والمخلاف: المدينة بلغة اليمن. وخارف: لقب مالك بن عبد الله من همدان. ويام وشاكر: قلبيلتان من همدان باليمن. والسود: الإبل. والقود: الخيل. والأنصاب: جمع نُصُب وهو حجر، وقيل واحدها نصاب، وهي الأصنام. ولعلع: اسم جبل. واليعفور: ولد البقرة الوحشية. والصلع: الموضع لا ينبت شيئا.

فكتب لهم رسول الله كتابا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم. ... ولمن أسلم من قومه، على أَنَّ لهم فِرَاعَهَا ووِهَاطَهَا وعِزَازَهَا، يأكلون عِلافَهَا ويرعَوْنَ عافِيَهَا، لنا منهم من دِفئِهم وصِرامهم ما سَلَّمُوا بالميثاق والأمانة ولهم من الصدقة الثِّلْبُ والنَّابُ والفَصِيلُ والفارِضُ والدَّاجِنُ والكَبْشُ الحَوَرِيُّ، وعليهم فيها الصَّالِغُ والقَارِحُ ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم بذلك عهد الله وذِمامُ رسول الله وشاهدهم المهاجرون والأنصار" [1].

ومضمون الحوار أن وفدا من همدان [2] قدم إلى رسول الله (ﷺ) بعد عودته من غزوة تبوك، يتقدمهم المشعار (مالك بن نمط)، وخطب فيهم وأعلنوا إسلامهم، فقال لهم رسول الله (ﷺ) إن لبني همدان الأرض التي يقيمون عليها ما ارتفع منها، وما انخفض، وأحل لهم أكل ما أنتجته الأرض التي لا يملكها أحد ويرعون فيها حيواناتهم،

(١) السابق: نفسه، وينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي: ٢/٢٦٤، دار الكتب العلمية . بيروت (دون). المخلاف: المدينة بلغة اليمن. وجناب الهضب: مركب تركيب مزج جمع هضبة، اسم بلد، الحقاف: جمع حقف، وهو الرمل المستدير، وهي اسم بلد كذلك. والفراع: أعالي الأرض. والوهاط: المنخفض من الأرض، الأرض المطمئنة. وعزازها: ما خشن وصلب منها والعلاف: ثمر الطلح. وعافيها: نباتها الكثير، يقال: عفا النبت وغيره إذا كثر.. وعلافها: ما تأكله الماشية. وعفاءها: ما ليس لأحد فيه ملك. والدفء: نتاج الإبل وألبانها، والأظهر أنه كناية عن الأنعام. وصرامهم: نخيلهم أو ثمرهم. سلموا: استسلموا. والميثاق: الإسلام أو العهد. والثلب: الهرم من الإبل الذي سقطت أسنانه، والناب: أنثى الإبل التي طال نابها. والفصيل: ولد الإبل الذي فصل عن أمه وفطم. والفارض: المسن من الإبل أو البقر. والداجن: الشاة يعلفها الناس في بيوتهم، والمراد أنه لا يؤخذ منهم في الزكاة. والكبش الحواري: منسوب إلى الحور، وهي جلود تتخذ من جلود الضأن، وقيل الذي جلده أحمر. والصالغ: ما دخل في السنة السادسة من البقر والغنم. والقارح: ما دخل من الخيل في السنة الخامسة ونهد: قبيلة باليمن. ومحضها: لبنها الذي لم يخالطه ماء. ينظر: صبح الأعشى: ٢/٢٦٤، ولسان العرب.

(٢) همدان: إحدي بطون كهلان من القحطانية كانوا يعبدون الأوثان كسائر القبائل في أرض شبه الجزيرة العربية، وهم شيعة الإمام علي بن أبي طالب في خلافه مع معاوية، وديارهم لم تزل باليمن الشرقية. ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القلقشندي: ٤٣٨-٤٣٩، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني . بيروت، ط: ثانية ١٤٠٠هـ . ١٩٨٠م.

وأن لهم ذمة الله ورسوله بشرط أن يقيموا الصلاة ويؤدوا الزكاة، وقد عاهدهم أن يقدموا للمسلمين في المدينة من نتاج الإبل والنخيل علي ألا تكون منها الجمال التي تكسرت أنيابها، والنوق المسنة، وولدها الفصيل عن أمه، والدواجن وجلود الضأن.. ويكون من هذه الصدقة البقر والضأن الذي أتم عاما، والفرس الذي بلغ عمره عاما [1].

ومن هذا الباب حديثه (ﷺ) مع طهفة بن زهير النهدي، فعندما قدمت وفود العرب علي النبي (ﷺ) قال طهفة: "يا رَسُولَ اللَّهِ، جِئْنَاكَ مِنْ غَوْرَيْ تِهَامَةَ عَلَى أَكْوَارِ الْمَيْسِ، تَرْمِي بِنَا الْعِيسُ، نَسْتَعْضِدُ الْبَرِيرَ، وَنَسْتَحْلِبُ الصَّبِيرَ، وَنَسْتَخْلِبُ الْخَبِيرَ، وَنَسْتَخْبِلُ الرِّهَامَ، وَنَسْتَحِيلُ الْجَهَامَ، مِنْ أَرْضٍ غَائِلَةِ النِّطَاءِ، غَلِيظَةِ الْوِطَاءِ، قَدْ يَبِسَ الْمُدَّهَنُ، وَجَفَّ الْجِعْثَنُ، وَسَقَطَ الْأُمْلُوجُ، وَمَاتَ الْعُسْلُوجُ، وَهَلَكَ الْهَدِيُّ، وَمَاتَ الْوَدِيُّ، بَرِئْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْوَثَنِ وَالْعَثَنِ وَمَا يُحْدِثُ الزَّمَنُ، لَنَا دَعْوَةُ السَّلَامِ وَشَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ مَا طَمَا الْبَحْرُ، وَقَامَ تِعَارٌ، لَنَا نَعَمٌ هَمَلٌ أَغْفَالٌ، مَا تَبِضُّ بِبِلَالٍ، وَوَقِيرٌ كَثِيرُ الرَّسَلِ، قَلِيلُ الرِّسْلِ، أَصَابَتْهَا سَنَةٌ حَمْرَاءُ مُؤْزِلَةٌ، لَيْسَ لَهَا نَهَلٌ وَلَا عَلَلٌ"[2].

---

(١) ينظر: سفراء الرسول، محمد عوض: ٩٣ . ٩٤، وكالة الصحافة العربية، ط: أولى٢٠١٧م.

(٢) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، د. أحمد زكي صفوت: ١/١٦٥-١٦٦، المكتبة العلمية (بيروت . لبنان). والغور: كل ما انحدر من تهامة. والميس: شجر تعمل منه رحال الإبل. والعيس: الإبل البيض يخالط بياضها شقرة يسيرة، واحدها: أعيس وعيساء. والصبير: سحاب أبيض متراكم متكاثف. والخبير: ثمر الآراك والعشب، ونستعضده: نجنيه للأكل. والبرير: ثمرالأراك كانوا يأكلونه وقت الجدب. ونستخيل: نظن. والرهام: جمع رهمة، وهي المطر الضعيف الدائم، وسحابة مخيلة: تحسبها ماطرة. والجهام: السحاب الذي فرغ ماؤه. والنطاء: البعد، أي بعيدة بعدا مهلكا. والوطاء: الفرش. والمدهن: مستنقع الماء، أو كل موضع حفره سيل. ونشف: جف. والجعثن: هو أصل النبات. والأملوج: ورق كورق السرو لشجر بالبادية. والعسلوج: الغصن وورق الشجرة إذا يبس وذهبت طراوته، وعسلجت الشجرة: أخرجته. والهدي: ما يهدى إلى البيت الحرام من النعم لينحر. وفاد: مات. الودي: صغار النخل، واحدته ودية. الوثن والعثن: الصنم الصغير. وطمى البحر: امتلأ وعلا. وتعار: جبل ببلاد قيس. وهمل: مهملة، والأغفال: جمع غفل، وهو ما لا سمة عليه من الدواب ولا علامة. وتبض: تسيل، من بض الماء: إذا قطر وسال. والبلال: ما يبل الحلق، والمراد قلة اللبن. ووقير: الغنم. وكثير الرسل: كثير الإرسال في المراعى. وقليل الرسل: أي اللبن، يريد غنما كثيرا ولبنا قليلا. وسنية: تصغير تعظيم لسنة، وهي القحط والمجاعة. وحمراء: شديدة. و مؤزلة: آتية بالأزل، وهو الجدب والشدة والقحط. ليس لها نهل ولا علل: أي: شرب ثانٍ بعد شرب أوّل لشدة القحط.

فقال رسول الله (ﷺ): "اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَحْضِهَا وَمَخْضِهَا وَمَذْقِهَا، وَاحْبِسْ مَرَاعِيَهَا فِي الدِّمَنِ، وَابْعَثْ مَرَاعِيَهَا فِي الدَّثَرِ، بِيَانِعِ الثَّمَرِ، وَافْجُرْ لَهُ الثَّمَدَ، وَبَارِكْ لَهُ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ، مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُؤْمِنًا، وَمَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ، لَمْ يُكَلِّفْكَ عَامِلًا، كَانَ مُحْسِنًا، وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مُسْلِمًا، لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعُ الشِّرْكِ وَوَضَائِعُ الْمِلْكِ، مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَهْدُ وَكَاءٍ مُؤَكَّدٍ، لَا تَتَثَاقَلْ عَنِ الصَّلَاةِ، وَلَا تُلْطِطْ فِي الزَّكَاةِ، وَلَا تُلْحِدْ فِي الْحَيَاةِ... " [(١)].

فالسهولة والإغراب في أسلوبه (ﷺ) وألفاظه خاضعة لمقتضي الحال والمقام، فما نحا الرسول (ﷺ) هذا المنحى من خطاب وفد همدان وبني نهد وغيرهما من قبائل العرب إلا ليفهمهم ما يقول؛ لأن معجمهم الخاص مؤلف من كلمات لا يتداولها غيرهم، فهو يخاطبهم بلحونهم، ولا يعدو ألفاظهم وعباراتهم فيما يريد أن يلقيه عليهم، وهي خاصة بهم وبمن يداخلهم ويقاربهم، فدل ذلك علي مقدرته البيانية الفائقة، وبلاغته العالية في مراعاة أحوال المخاطبين، فقد أحاط علما بألسنة لم تشافهه من قبل.. ولم تكن هذه الألفاظ الغريبة مجتلبة، ولا متكلفة، وإنما جرت منه (ﷺ) مجري غيرها مما قذفه الطبع المتمكن، وألفته السليقة الواعية [(٢)]، فـ "فصاحة رسول الله (ﷺ) لا تقتضي استعمال هذه الألفاظ، ولا تكاد توجد في كلامه إلا جوابا لمن يخاطبه بمثلها" [(٣)]، وفي ذلك يقول علي

(١) جمهرة خطب العرب . والمراد بمحضها: اللبن الخالص. ومخضها: ما مخض من اللبن: أخذ زبده. والمزق: اللبن الممزوج بالماء. وفرقها: ميكال يكال به اللبن. والدثر: المال الكثير، وقيل: هو الخصب والنماء. والثمد: الماء القليل. وافجره: صيره لهم كثيرا. ودائع: أي الغنائم التي تغنم من المشركين وتودع في بيت المال ليقوموا بها على شئونهم. والوضائع: جمع وضيعة، وهي ما يأخذه السلطان من الخراج والعشور، يريد أن يقول: إن موارد المال للأمة الإسلامية ركنان: الغنائم والزكاة، فلا تعطلوا الزكاة. لا تلطط في الزكاة: لا تمنعها.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٢٦٧.

(٣) المثل السائرفي أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير: ١٦٧/١، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية (صيدا . بيروت) ١٤١٦هـ . ١٩٩٥م.

(كـرم الله وجهـه): "حـدثوا النـاس بمـا يعرفـون، أتحبـون أن يُكـذب الله ورسـوله؟ " [١]، ويقول أبو هلال العسكري: "ولا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة.. لأن ذلك جهل بالمقامات، وما يصلح في كل واحد منها من الكلام، وأحسن الذي قال لكل مقام مقال، وربما غلب سوء الرأي، وقلة العقل على بعض علماء العربية، فيخاطبون السوقي والمملوكي والأعجمي بألفاظ أهل نجد، ومعاني أهل السراة"[٢].

ومن ذلك نستنتج "أن الطابع العام للتعبير النبوي هو الوضوح وقرب المتناول وروعة الإيحاء... أما ما نحا منحي الغرابة فقد وافق مقتضي الحال في إغرابه"[٣].

فهذان الحديثان وأمثلاهما يدلان علي حرص الرسول (ﷺ) علي أن يتكلم بالكلام الواضح لسامعيه، ولو ركب في سبيل ذلك الصعب الذي لا يألفه، فهذه المفردات علي غرابتها هي الكلمات الحية الواضحة المستعملة لدي المخاطبين بها[٤].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتب(العلم)، باب(من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا)، رقم (١٢٧).

(٢) كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)،أبي هلال العسكري: ٣٧. كتاب،تح: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية(بيروت . لبنان)،ط: ثانية١٤٠٩ هـ . ١٩٨٩م

(٣) البيان النبوي، د. محمد رجب البيومي: ٢٦٢.

(٤) ينظر: الحديث النبوي (مصطلحه –بلاغته . كتبه)، محمد بن لطفي الصباغ: ٦١، المكتب الإسلامي ١٤١١هـ . ١٩٩٠م.

المطلب الثالث :-

في سياق خطاب الأتباع والمخالفين والمخطئين.

أولا: تنوع خطاب الأتباع بين اللين والشدة بتنوع حالهم.

أسلوب الرفق واللين هو ما ينبغي أن يتبعه القائد مع أتباعه، لأن الرفق واللين يبعث الحب، وينشر الثقة بين الطرفين، ويبني علاقة قوامها التواصل والحب والتفاهم.. وهو من أهم القواعد الأساسية في التعامل مع الآخر والتأثير فيه، لأن فطرة الإنسان وطبيعته تهفو إلى اللين، وترنو إلى الرحمة، والحب والتسامح، وتنفر من الغلظة والعنف والشدة.. ولذا كان الرفق واللين من أهم وسائل القبول الإنساني؛ لأن الخَلق جميعا في حاجة ماسة إلى بشاشة سمحة، وكنف رحيم وود يسعهم، وفي حاجة إلى قلب رفيق يمنحهم ولا ينتظر منهم، يحمل همومهم، ويجدون عنده الأمن والسكينة، والحب والرضا.

ولذا كان الرفق واللين هو الأصل في دعوته (ﷺ) أتباعه، وربما لجأ إلى الشدة إذا استدعاها الحال والمقام، فكان (ﷺ) يفرق في تعامله بين حالين، حال الشخص الذي قوي إيمانه ورسخ في قلبه، وتمكن من فؤاده، وحال حديث العهد بالإسلام، فكان يلين لبعض أتباعه وأصحابه وخاصة من يخاف علي إيمانهم من التفلت، ثم هو قد يشتد علي بعض أصحابه المقربين وأتباعه من الموحدين وأهل اليقين، ممن تمكن الإيمان من قلوبهم وخالط بشاشتها.

فلما كانت غاية النبي (ﷺ) هي الدعوة إلى الله (ﷻ) وفقه منهج القرآن الكريم في مخاطبة النفوس والعقول، فإن أساليب الخطاب اختلفت وتنوعت تبعا لتنوع تلك النفوس، تأمل خطابه (ﷺ) لأتباعه من الأنصار حين وجدوا عليه عند تقسيم غنائم غزوة حنين في المهاجرين دونهم، وقالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، وذلك في حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: "لما أصاب رسول الله الغنائم يوم حنين، وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم، ولم يكن في الأنصار شيئ منها، لا قليل ولا كثير، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى قال قائلهم: لقي – والله – رسول الله قومه، فمشى سعيد بن عباده إلى رسول الله فقال: يا رسول إن هذا الحي من الأنصار وجدوا

عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك. . . فقام فيهم خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: يا معشر الأنصار ألم آتكم ضُلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، . . . والله لو شئتم لقلتم فصَدَقتم وصُدِّقتم: جئتنا طريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك، وخائفا فأمناك، . . . أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، أما ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم. . . فوالذي نفس محمد بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار "[1].

فجاء خطابه (ﷺ) لأتباعه . حين أساؤوا فيه الظن، وثارت نعرة الجاهية بينهم . رقيقا رفيقا، مليئا بمشاعر الحب والاعتزاز، يتناسب مع حالهم الحزين المندهش، الذي يستدعي خطابا هامسا، وعتابا مشفقا، يُلين قلوبهم المقهورة، ويطرد ما فيها من وَهَن وحزن، ولذا كان هذا النداء (يا معشر الأنصار) في الصدارة، وتكرار كلمة (الأنصار) اعترافا بحقهم وتأنيسا لقلوبهم، واستمالة لعقولهم، حتي أزعنوا وبكوا بكاء شديدا، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا.

وإذا كان الرسول (ﷺ) قد رفق بالأنصار مراعاة لحالهم؛ لقرب عهدهم بالإسلام، وخوفه عليهم أن يتربص بهم الشيطان ويثير فيهم نعرة الجاهلية، فيخرجون عن حياض الدين.. فإنه قد شدد علي بعض أتباعه المقربين مراعاة لحالهم، ولِمَ يعلمه عنهم من قوة إيمانهم، وتمكنه من قلوبهم وأفئدتهم.. تأمل غضبه (ﷺ) وشدته علي أسامة بن زيد (رضي الله عنه) عندما شفع في حد من حدود الله، فيما روته السيدة عَائِشَةَ – (رضي الله عنها) - " أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمْ الْمَرْأَةُ الْمَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ)، فَقَالُوا:

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ١٨/٢٥٣-٢٥٥، رقم(١١٧٣٠)، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط: ثانية ١٤٢١هـ . ٢٠٠١م.

وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيه إلاَّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فقال: ﴿أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟﴾، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَيُّهَا الناس، إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَيْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا﴾[1].

استخدم الرسول (ﷺ) عدة أساليب اتسمت بالانفعال الشديد، والنبرة العالية الغاضبة التي تنسجم مع خطر الأمر وشدته، حيث وجه الخطاب إلى أسامة (رضي الله عنه)مباشرة مع تقديم الاستفهام الإنكاري علي النداء؛ ليوقع في نفسه عِظَم ما ارتكبه، مع أمن جانب أسامة (رضي الله عنه) أن يستبد به الشيطان، أو يتردد في إسلامه، وهو من السابقين إلى الإسلام، ومن خواص أصحابه (ﷺ) الذين رسخ الإيمان في قلوبهم.

ومن ذلك ما رواه المعرور بن سويد، قال: لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ (ﷺ)﴿ : يا أبا ذر، أعيرته بأمه، إنك امرؤ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم﴾[2].

شدد الرسول علي الصحابي الجليل أبي ذر، وهو معدود من أتباعه وخواص أصحابه، تمثلت هذه الشدة في الافتتاح بالنداء الزاجر المنبه لما وقع فيه من خطأ (يا أبا ذر)، والاستفهام الإنكاري اللاذع (أعيرته بأمه؟)، والأسلوب الخبري (إنك امرؤ فيك جاهلية) يرتقي بهذه الشدة ويصعدها، ويعكس انفعال النبي (ﷺ) من صنيع الصحابي

(١) صحيح البخاري ،كتاب (الحدود)، باب(كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان)، رقم(٦٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (الإيمان)، باب (المعاصي من أمر الجاهلية)، رقم(٣٠). وأخرجه مسلم في كتاب (الإيمان والنذور)، باب: (إطعام المملوك مما يأكل)، رقم: (١٦٦١.)

الجليل، ويعلن عن موقفه الرافض لهذا السلوك.. لاسيما مع تنكير (امرؤ) الذي تفوح منه رائحة اللوم والتأنيب، فهو بفعلته هذه صار منكورا، كأنه غريب وافد، إذ لم يعهد عليه ذلك.. كما نكر (جاهلية) ذما لها، وتقبيحا لشأنها، وتصعيدا لنبرة التوبيخ.

وهذا كله يعكس ثورة الغضب في نفس النبي (ﷺ)، ورغبته في نقل هذا الانفعال إلى المخاطب؛ ليستشعر هذا الخطر، ويدفعه إلى ترك التساهل في ارتكابه.. وفي ذلك مراعاة لحال الصحابي الجليل، إذ راعي فيه تقدم إسلامه، وقوة إيمانه، فشدد عليه القول؛ لأمن الفتنة ، بخلاف حديثي الإسلام، ومن يخاف عليهم التردد فيما هم فيه.

ثانيا: تنوع خطابه (ﷺ) للأعداء والمخالفين بين الشدة واللين بتنوع حالهم.

تميز أسلوبه (ﷺ) في وعظ مخالفيه ودعوتهم باللين واللطف، فكان يبصرهم بالحق، ويدعوهم إلى التدبر والتأمل؛ رغبة في إقناعهم بما فيه صلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، فكان حليما بهم، ولم يلجأ إلى الشدة إلا مع الكارهين منهم، والمصرين علي العداء والعناد ممن طبع الله على قلوبهم واستحوذ الشيطان علي أفئدتهم، فاتخذوا من الصدود والإعراض عن دين الله غاية ومنهاجا.. فتنوعت أساليبه (ﷺ) في خطابهم تبعا لاختلاف نفوسهم، فخِطَاب النصاري يختلف عن خطاب اليهود، وخطاب بعض الكفار يختلف عن البعض الآخر، ويتنوع بين الشدة واللين، فخطابه لعمه أبي طالب كان رفيقا رقيقا.. وهو وثني مخالف له في العقيدة، لطالما أنه كان حاجزا له عن أذي قريش، وحرزا له ولدعوته من أن تنالهما أيدي الكفر والطاغوت، فقد روي عن سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّب، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فَقَالَ: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ... لأستغفرن لك ما لم أُنه﴾ (١).

فالخطاب هنا يفيض بمعاني الرفق والإشفاق الحاني؛ حيث النداء بالأداة الموضوعة لنداء القريب، الذي يضفي على السياق بمعاني الأنس واللطف والاهتمام بأمر عمه، فضلا عن نداء العمومة بما عليه (ﷺ)من حق تجاهه، ثم كان القسم علي

(١) اخرجه البخاري في كتاب (الأيمان والنذور) ، باب (إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبح أو كبر)، رقم (٦٦٨١).

أن يستغفر لعمه تطمينا لنفسه، وتأليفا لقلبه، وتطييبا لخاطره، واستمالة له؛ حتي يلحق بركب المؤمنين وفاء وعرفانا، لدوره في الدفاع عنه، ومؤازرته ضد قريش وأذاها.

ومن خطاباته الرقيقة مع المخالفين من الكفارتأليفا لقلوبهم، ما رواه جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ النَّبِيُّ (ﷺ) قَفَلَ مَعَهُ،... وَنَزَلَ النَّبِيُّ (ﷺ) تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ قَالَ جَابِرٌ: "فَنِمْنَا نَوْمَةً، ثُمَّ إِذَا النَّبِيُّ (ﷺ) يَدْعُونَا، فَأَجَبْنَاهُ فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): "إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا" فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: "اللهُ ثلاثا" وَلَمْ يُعَاقِبْه وجلس"[1].

وفي رواية قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: "اللَّهُ"، فَسَقَطَ السيف من يده فأخذ السَّيْفَ فَقَالَ: "مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ "فَقَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ. فَقَالَ: "تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: لَا وَلَكِنِّي أُعَاهِدُكَ عَلَى أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ فَخَلَّى سَبِيلَهُ فَأَتَى أَصْحَابَهُ فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ "[2].

تجاوز الرسول (ﷺ) عمن حاول قتله، وعفى عنه، وألان له الكلام؛ رعاية لما عليه حال الرجل من كفر وضلال ، وجهل بتعاليم الإسلام، فتسامح معه(ﷺ)، وخفض له جناحه رغبة في استمالته، وتأليفا لقلبه" ليثوب إلى رشده، ويعود عن بطشه، ويستبصر من جديد في الحق الذي حاربه والمبدأ الذي وقف له شائنا "[3].

وقد أتي هذا العفو أكله، فذكر أن هذا الرجل أسلم ورجع إلى قومه فاهتدي به خلق كثير[4].

---

(١)أخرجه البخاري في كتاب(الجهاد والسير)،باب(من علق سيفه بالشجر عند القائلة)،ح(٢٩١٠).

(٢) مشكاة المصابيح، التبريزي، ٣/١٦٠، رقم(٥٣٠٥)، تح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي . بيروت، ط: ثالثة ١٩٨٥م.

(٣) تأملات دعوية في السنة النبوية،د. عبد الله الوكيل: ٧٣، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ط: أولى١٩٩٨م.

(٤) ينظر: منحة الباري بشرح صحيح البخاري(تحفة الباري)، زكريا الأنصاري: ٣٢٢/٧، مكتبة الرشد(الرياض . السعودية) ط: أولى ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م.

ومن ذلك أيضا ما رواه أنس بن مالك (ﷺ) يقول: بينما نحن جلوس مع النبي (ﷺ) في المسجد، إذ دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد، ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي (ﷺ) متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: يا ابن عبد المطلب، فقال له النبي(ﷺ)- : "قد أجبتك". فقال: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك، فقال: "سل عمّا بدا لك"، فقال: أسألك بربك وربّ من قبلك، آللهُ أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: "اللّهمّ نعم"، فقال: أنشدك بالله، آللهُ أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: "اللهمّ نعم"، فقال: أنشدك بالله، آللهُ أمرك أن تصوم هذا الشهر في السنة؟ قال: "اللّهم نعم"، فقال: أنشدك بالله، آللهُ أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فنقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي(ﷺ)- : "اللهم نعم "فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول مَنْ ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر" [(١)].

فعلي الرغم من كفر هذا الرجل، ومجافاته الأدب في مقام النبوة، برفع صوته ومناداة الرسول باسمه (أيكم محمد؟) إلا أنه (ﷺ) راعي طبيعته الغليظة الجافة، وأنه أتي مشركا يريد الدخول في الإسلام، فخاطبه في لين ولطف، فـ "لم يقل له: نعم؛ لأنه لم يخاطبه بمنزلته من التعظيم، والعذر عنه إن قلنا إنه قدم مسلما أنه لم يبلغه النهي، وكانت فيه بقية من جفاء الأعراب، وقد ظهرت بعد ذلك في قوله: فمشدد عليك في المسألة" [(٢)]، فالمسلم مطالب ببر كل الناس، واللين معهم، حتي لو كانوا كفارا؛ رغبة في إسلامهم، ما لم يكن ذلك عائقا بين الناس ودعوة الإسلام، قال تعالي: {لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾} [الممتحنة: ٨].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب (العلم)، باب (ما جاء في العلم)، رقم(٦٣) .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: ١/١٥١، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت ١٣٧٩هـ.

ولذا كان خطابه (ﷺ) اللين الرقيق عاما لأمة الدعوة علي السواء، "وأمة الدعوة يدخل فيها الكافرون، وجميع أهل الملل ، كاليهود والنصارى، ويصدق عليهم هذا الإطلاق للدعوة التي وجهت لهم، وبلغتهم، فإن هم أجابوا سموا أمة الدعوة" (١).

وجاء خطابه (ﷺ) للنصاري لينا رقيقا مع أنهم مخالفين له في العقيدة؛ مراعاة لما يحملونه من مودة للمسلمين؛ لقوله تعالي: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } [المائدة: ٨٣].. تأمل خطابه (ﷺ) في كتابه الذي أرسله إلى المقوقس وقومه يدعوهم إلى الإسلام، والذي قال فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم . . . من محمد بن عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من أتبع الهدى، أما بعد . . . فإني أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } "(٢) [آل عمران: ٦٤].

قام كتابه (ﷺ) للنصاري على تأكيد وحدانية الله وعدم الإشراك به، والخضوع التام له سبحانه، في خطاب لين هين، تحوطه المودة والطمأنينة والإيناس؛ رغبة في استمالتهم ورعاية ما عليه حالهم، وما تنطوي عليه أنفسهم من عدم التكبر الذي من شأنه أن يحول دون انصياعهم لقبول دعوة الحق.

أما خطاب الشدة فنجده في خطاب اليهود، فكثيرا ما يراعي فيهم الرسول (ﷺ) مكرهم وعنادهم، وتربصهم بالإسلام وأهله، فدائما ما ينسبون لله تعالي النقائص والقبائح، كادعائهم أن الله فقير وهم أغنياء، وغير ذلك، فهم أهل كذب وخداع، وكبر

(١) فيض القدير(شرح الجامع الصغير)، للمناوي: ٩/١، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ط: الأولى١٣٥٦هـ.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: ٣٦٤/٦.

واستعلاء.. تأمل ما جاء عن عائشة (ﷺ)قالت: {دخل رهط من اليهود على رسول الله(ﷺ)، فقالوا: السّام عليك، قالت عائشة ففهمتُها، فقلت: عليكم السّام واللعنةُ، قالت: فقال رسولُ الله(ﷺ): مهلاً يا عائشةِ إن الله يحب الرِّفْقَ في الأمر كلِّه، فقلت: يا رسولَ الله، ألم تسمع ما قالوا ؟ قال رسولُ الله(ﷺ): قد قلتُ: وعليكم } [1].

فالرسول (ﷺ) لم يلن لهم، وإنما راعي حالهم، وما يدينون به من مكر وخداع، وما تنطوي عليه أنفسهم الشريرة من خُبث، ولذا دعى عليهم بالقتل وما يستحقون من الذم في صورة تحفظ له مكانته المعهودة من حسن الخلق، وعفة اللسان.

ومن شدته (ﷺ) في معاملة الأعداء من كفار قريش ودعائه عليهم، ما رواه عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ النَّبِيَّ(ﷺ) كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ؛ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ (ﷺ) وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللهِ (ﷺ) سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: اللهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يُرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى: "اللهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ"، وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْهُ قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللهِ(ﷺ) صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ، قَلِيبِ بَدْرٍ "[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب(السلام)، باب(النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يرد عليهم)، رقم(٢١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب (الجهاد والسير)، باب (ما لقي النبي (ﷺ) من آذى المشركين والمنافقين)، حديث رقم (١٧٩٤).

فإذا كان اللين والتسامح هو الأصل في خطابه (ﷺ) جميع الخلق، مسلمين وغير مسلمين، إلا أنه (ﷺ) راعى حال المخاطبين من صناديد قريش، الذين رأى على أيديهم ما رأي من بشاعة الإيذاء وقبح الاستخفاف به، والإمعان في الصدود والإعراض، ومن هنا كان غضبه (ﷺ) ودعاؤه بالانتقام ملائما لمقتضي الحال.

ثالثا: تنوع الخطاب النبوي للمخطئين بين الشدة واللين بتنوع حالهم.

تنوع خطابه (ﷺ) في التعامل مع المخطئين بين الشدة واللين تبعا لحال المخطئ ونوع الخطأ، إلا أن اللين والرفق هو الخط العام الذي رسمه الدين الحنيف في معاملة الأخطاء؛ حتي يتألف أصحابها، ويستميل قلوبهم، ويردهم إليه مردا جميلا، ولذا تجنب في معاملتهم العنف، وفتح باب التوبة والتكفير، تجلي ذلك في" الرفق بالمخطئ والأخذ بيده إلى الصواب، والإشفاق عليه من جريرة معصيته وخطئه، والبعد عن مقابلته بالعنف والقهر، أو التشنيع والاحتقار، إذ إن هذا الأسلوب القاهر قد يتولد عنه إذلال نفس المخطئ وتحطيم شخصيته، وربما أدي هذا الأسلوب إلى عناد المخطئ وإصراره علي الذنب، والأصل إشعار المخطئ بأن نفسه لا تزال تحمل الخير"(١).

إن تليين القول يكسر عناد العتاة، ويدخل إلى القلوب دون استئناء؛ لأن الناس ينفرون من الفظ الغليظ، ثقيل الظل ولو بلغ في الدين ما بلغ، وما ثقل أحد على قلوب الصادقين المخلصين إلا من جفوة هناك وإلا فلين العريكة، واليسرفي القول والمعاملة يزيد الصادقين المخلصين قبولا وأنسا، ويزيل عنهم الغلظة وثقل النفس، ويصير الواحد منهم روحانيا تهف إليه النفوس، وتتعلق به الأفئدة.

ومع أن معظم أمثلة هذا المطلب تدخل في خطاب الأتباع والمخالفين إلا أنني آثرت إفراد خطاب المخطئين للتركيز على موقف البيان النبوي والشريعة الإسلامية من الخطأ أيا كان مرتكبه ، فضلا عن الحاجة إلى ذكر أنواع الخطأ وتنوع الخطاب النبوي بنوع الخطأ وطبيعته ، فإذا كان الخطأ مقدورا علي تفاديه من قبل المخطئ، ويسهل عليه اجتنابه يجابه مرتكبه بخطاب شديد بخلاف غيره،.. فمع أن الرفق واللين كان ديدنه (ﷺ)في معالجة الأخطاء، إلا أن الشدة كانت الوجه الآخر لخطابه في الوقوف مع

(١) تأملات دعوية في السنة النبوية، د. عبد الله بن الوكيل: ٧٨.

بعض الأخطاء، رعاية لحال تلك النفوس التي لا ينفع معها التهاون، ولا يجدي معها اللين، وخاصة إذا انتهكت محارم الله، وإذا ما استشرت المفسدة، وكانت مصدر تهديد ومعول هدم للمجتمع.

أما عن خطابه اللين الرقيق مراعاة لمقتضي الحال، فمنه ما روي عن أبي بكرة (ﷺ) أنه دخلَ المسجدَ ونبيُّ الله (ﷺ)راكع، قال: فركعتُ دون الصَّفِّ، فقال النبي(ﷺ): " زادكَ اللهُ حِرصاً ولا تَعُدْ"(١).

وهذا الرد من الرسول (ﷺ) يدل علي حكمة بالغة، فلم ينهره ولم يؤذ مشاعره بتوجيه اللوم إليه، لعلمه بحسن نيته، ونقاء طويته، ورغبته في الاجتهاد وتحصيل الأجر تقربا إلى الله، ولذا رق لحاله وألان له الحديث، ودعى له بزيادة الحرص علي صلاة الجماعة، في أسلوب خبري – بصيغة الماضي – يفيد تحقق مضمون الدعاء، وتأكيد حصوله؛ تكريما للمخاطب، وتأليفا لقلبه، ومراعاة لجهله، وحرصا علي التعلم... وجاء تقديم الدعاء له (زادك الله حرصا) علي النهي بتوجيهه إلى الصواب، في أسلوب حانٍ رفيق مشفق، وموجز، يحمل الخير والمودة للمخطئ والحرص عليه.

وشبيه بذلك حال الرجل الذي شمت العاطس في الصلاة، فلم ينهره الرسول (ﷺ) لجهله، وإنما أخذ بيده يعلمه في رفق ولين، وذلك فيما رواه مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) فَعَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ يُصَمِّتُونِي –قَالَ عُثْمَانُ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُسَكِّتُونِي لَكِنِي سَكَتُّ– فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ – بِأَبِي وَأُمِّي – مَا ضَرَبَنِي وَلَا كَهَرَنِي وَلَا سَبَّنِي، ثُمَّ قَالَ: " إِنَّ

(١) أخرجه البخاري في كتاب(الأذان)، باب(إذا ركع دون الصف)، رقم(٧٨٣).

هَـذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَحِلُّ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ "فقلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بالجاهلية..."(١).

فالنبي (ﷺ) راعي جهل المخاطب، واستعمل معه أسلوب اللين والحكمة؛ ليأخذ بيده إلى محراب الطاعة، ويحقق الثمرة المرجوة من الصلاة، فقصر الصلاة علي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن بـ (إنما) تعريضا بالمخاطب، وتنبيها لما وقع منه من خطأ يتنافي مع قدسيتها، وحال المسلم معها من خشوع وخضوع وتذلل وانكسار... ولعل استخدام النبي (ﷺ) للأسلوب الخبري القائم على القصر - عوضا عن النهي الصريح - قد ساعد في تهدئة نبرة الأسلوب، وأضفى علي السياق جوا من الأمن والطمأنينة، مما جعله يقول: "ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه" (٢).. وفيه "التخلق بخلقه (ﷺ)في الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه ومراعاة أحواله" (٣).

ومن خطاباته الحانية الرفيقة بالسارق الجائع ما روي عَنْ عَبَّادِ بْنِ شُرَحْبِيلَ، قَالَ: قَدِمْتُ مَعَ عُمُومَتِي الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِهَا، فَفَرَكْتُ مِنْ سُنْبُلِهِ، فَجَاءَ صَاحِبُ الْحَائِطِ فَأَخَذَ كِسَائِي وَضَرَبَنِي، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) أَسْتَعْدِي عَلَيْهِ، فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب (الصلاة)، باب (في تشميت العاطس في الصلاة)، رقم(٩٣٠)، وسنن النسائي، باب (الكلام في الصلاة)، رقم(١١٤١)،تح: حسن عبد المنعم شلبي وآخرون، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: أولى١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

. واثُكل أميَّاه: وا: حرف ندبة وحسرة، والثُّكل: فقْد الْوَلَدِ. وَامْرَأَةٌ ثَاكِل وثَكْلَى. وَرَجُلٌ ثَاكِل وثَكْلَان، كَأَنَّهُ دَعَا عَلَيْهِ بالموتِ لِسُوءِ فِعْلِه أَوْ قَوْلِهِ. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير الجزري: ١/ ٢١٧، تح: طاهر أحمد الزاوى . المكتبة العلمية – بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، وأميَّاه: بكسر الميم أصله أمَّي زيدت عليه الألف لمد الصوت وهاء السكت وهي تثبت وقفًا لا وصلًا. ويجمع بين الألف واللام للمبالغة في الندب والتحسر، والمراد: وافقد أمي إياي فقد هلكت. ينظر: حاشية السندي على سنن النسائي، للسندي: ١٦/٣مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب، ط: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢)المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي ، كتاب (السهوما ينقض الصلاة، وما لا ينقضها)، باب(نسخ ذلك وتحريمه)، رقم(٥٦١). تح: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، ط: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢٣/٣ دار إحياء التراث العربي . بيروت، ط: ثانية١٣٩٢هـ.

فَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ دَخَلَ حَائِطِي، فَأَخَذَ مِنْ سُنْبُلِهِ فَفَرَكَهُ، فَقَالَ (ﷺ): مَا عَلَّمْتُهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا، وَلَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا، ارْدُدْ عَلَيْهِ كِسَاءَهُ، وَأَمَرَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) بِوَسْقٍ أَوْ نِصْفِ وَسْقٍ "[1].

الحديث الشريف أنموذج لما ينبغي أن يُعامَل به المخطئ من رفق ولين، وضرورة الأخذ بيده إلى الصواب، دون عنف أو قسوة، ووجه إلى وجوب مراعاة ما عليه حال الرجل من جوع اضطره إلى الأكل من البستان، حين لام صاحب الحائط علي ضربه وتعنيفه، وحثه علي الرفق والتلطف به، وحسن تعليمه.

وتأمل حال الرسول (ﷺ) مع الرجل الذي بال في المسجد، ومعلوم أن المساجد هي بيوت الله في الأرض، وأن البول من أعظم النجاسات، يقول أَنَسِ بن مَالِكٍ (ﷺ): بينما نحنُ في المسجد مع رسول الله (ﷺ)، إذْ جاء أعرابيّ، فقام يبولُ في المسجد، فقال أصحابُ رسول الله (ﷺ): مَهْ، مَهْ، فقال رسول الله (ﷺ): ﴿لا تُزْرِمُوه، دَعُوه، فتركوه حتى بالَ، ثم إنَّ رسول الله (ﷺ) دعاه، فقال له: إنَّ هذه المساجدَ لا تصلحُ لشيءٍ من هذا البول والقَذَرِ، إنما هي لذِكْرِ الله، والصلاةِ، وقراءةِ القرآن﴾[2]، وفي رواية مسلم، قال: ﴿فامر رجلا من القوم، فجاء بدَلْوٍ من ماء، فشنه عليه﴾[3]، وفي رواية البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (ﷺ): قال: قام أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ ليقعوا به، فقال لهم النبي (ﷺ): ﴿دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ – أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ﴾[4].

وفعل النبي (ﷺ) هنا كان في غاية الرحمة والرفق، فقد راعى في المخطئ جهله وقرب عهده بالإسلام، كما راعى فيه قسوة طباع الأعراب، وشدة خشونتهم، وتنافر أمزجتهم، فصبر عليه، وحلم معه، وعامله بالحسني، ومنع أصحابه من تعنيفه ، ولامهم

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب (أداب القضاة)، باب (الاستعداء)، رقم (٥٤٠٩).

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب (الطهارة)، رقم: (٥٦).

(٣) صحيح مسلم، كتاب(الطهارة)، باب(وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد)، رقم(٢٨٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: (الأدب)، باب: (يسروا ولا تعسروا)، رقم: (٦١٢٨).

وعرَّض بخطئهم (إنما بعثتم ميسرين)؛ تقديرا لحال الرجل وطبيعته وطبيعة البيئة التي قدم منها، إذ" العذر بالجهل يتناسب مع مراعاة أحوال الناس، ودرجاتهم في العلم والفهم... ولا شك أن مراعاة أحوال الناس وأعيانهم ترجع إلى أن الناس لا يشتركون جميعا في معرفة الأمور الضرورية علي درجة واحدة "(١).

ولذا عُذر الرجل بجهله، ونشأته بعيدا عن الإسلام وأهله، ففي رواية قال له الرسول (ﷺ): " ما حملك علي ما فعلت؟ "، قال: والذي بعثك بالحق ما ظننته إلا صعيدا من الصعدات فبلت به"(٢).. ومن ثم فالحديث دعوة إلى "الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف ولا إيذاء إذا لم يأت بالمخالفة استخفافا أو عنادا" (٣) .

ومن هنا كان الأسلوب الخبري بديلا عن النهي المباشر، تعليما له، وتعريضا بخطئه، لأن الأسلوب الخبري يتناسب مع المقامات الهادئة الرسيسة، بخلاف النهي الصريح الذي يأتي في المقامات الصاخبة ذات النبرة الجهيرة، وفيه إشارة إلى سهولة الموقف، وأنه لا يستدعي شدًا ولا جذبًا، مما كان له أعظم الأثر في نفس الأعرابي، فدعا له بقوله: "اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم أحدًا معنا، فضحك النبي (ﷺ) وقال له: " لقد تحجرت واسعا "(٤).

أما عن شدته (ﷺ) مع المخطئ، فمنه ما رواه جابر بن عبد الله، قال: كنا مع النبي (ﷺ) في غزاة فكسع (٥) رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال رسول الله (ﷺ): " ما بال دعوى الجاهلية"، قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال دعوها فإنها منتنة" (٦).

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٣/ ١٣، تح: صلاح عويضه وغيره، دار المنارللطبع والنشر . القاهرة١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م.

(٢)المعجم الكبير، للطبراني:١١/ ٢٢٠،تح: حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية- القاهرة،ط: ثانية(د.ت).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: (الأدب)، باب: (يسروا ولا تعسروا)، رقم: (٦١٢٨).

(٤)أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: (الأدب)، باب: (رحمة الناس والبهائم)، رقم: (٥٦٦٤).

(٥) الكسع: أن تضرب دبر الإنسان بصدر قدمك، ينظر: لسان العرب: كسع.

(٦) صحيح مسلم، كتاب (البر والصلة)، باب (نصرة الأخ ظالما أو مظلوما)، رقم (٥٨٤).

اتسم الخطاب النبوي هنا بالانفعال والنبرة العالية، بما ينسجم مع خطر العصبية القبلية التي تعصف بالمجتمع، وتقوض بناءه.. نري ذلك في نداء الاستغاثة (يا للأنصار . يا للمهاجرين) الذي ينادي بالعصبية، ويؤذن بالشقاق، وينذر بالفتنة، ويجلب القطيعة، ويبعث الدمار... ولذا كان هذا الاستفهام الإنكاري العالي النبرة (ما بال دعوى الجاهلية؟) صيحة مدوية تنهى عن الفتنة، وتنبه إلى خطرها، وتزيل غشاوة البصيرة التي أعماها الغضب... وفي إضافة الدعوى إلى الجاهلية تصعيد للخطاب، وتقبيح لمن أقبل عليها، مع ملاحظة الأمر (دعوها فإنها منتنة)، بما يحمله من معني النهي، والوصف بـ (منتنة) القائمة علي استعارة مكنية ترهب إلينا التعصب، وتجسده في صورة جيفة قبيحة المنظر، خبيثة الرائحة، زجرا للمخاطبين عن قربه، ولذا أنزلهم منزلة المنكرين حين أكد ذلك بقوله: (فإنها منتنة)لما صدر منهم من نداء العصبية، والتمسك بعادات الجاهلية.. وبذلك تتسق شدة الخطاب وعلو نبرته مع مقتضي الحال، وخطورة الخطأ وقبح عاقبته.

ومن ذلك ما رواه عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ): أَنَّهُ ذُكِرَ عِنْدَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنْ رَجُلٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) أَفْضَلُ مِنْهُ فِي كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): ﴿وَيْلَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ﴾ مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: مَنْ كَانَ مَادِحًا أَخَاهُ-لَا مَحَالَةَ-فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا -وَاللَّهُ حَسِيبُهُ-وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ﴾ (١).

وعن عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ (ﷺ) رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي الْمَدْحَةِ فَقَالَ: ﴿أَهْلَكْتُمْ -أَوْ قَطَعْتُمْ -ظَهْرَ الرَّجُلِ﴾ (٢).

السياق هنا استدعي خطابًا شديدًا حاسمًا؛ مراعاة لحال المخاطب، وخطر صنيعه، لما يترتب علي الإطراء في المدح من داء العجب، وهو من أشد أدواء النفس، وآفة اجتماعية خطيرة، إذا فشت في مجتمع هدمته، وأفسدت نفوس أهله، إنها تجعل الأفضلية عند من يستهويهم المديح لمن يبالغ في مدحهم، وينسب إلى الممدوح ما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: (الأدب)، باب: (ما يكره من التمادح)، رقم: (٦٠٦١).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ٣/ ٥٢٨.

يرضي غروره، ويعميه عن عيوبه [١].. فيسيطر عليه العجب، وتشوه عقيدته، ويحبط عمله ويهلك... ومن ثم كان هذا الانفعال الشديد في مفتتح كلامه (ﷺ) بالدعاء علي المخاطب (ويحك)، وهي كناية عن (ويلك) تقال عند الشتم والتوبيخ، وكثرت حتي صارت للتعجب، يقولها أحدهم لمن يحب ويبغض[٢].

وهذا من شأنه أن يخفق له القلب، وتفزع معه النفس، ويشتد كربها؛ إذ (الويح) كلمة ترحم تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها [٣]، وجاء في رواية البخاري (ويلك)[٤]، و "الويل: الحزن والهلاك والمشقة، يقال: لمن وقع في هلكة وعذاب" [٥].. وبذلك يكون التحذير أقوي، والإنكار أشد وأنكي.

وتظهر الشدة، ويبدو التصعيد بالتحذير مع ملاحظة الاستعارة التصريحية التبعية، بتشبيه الأثر الذي ينال الممدوح من الاغترار والعجب والتكبر نتيجة الإسراف في المدح بقطع عنقه، والذي كني به عن القتل وإزهاق الروح، بجامع الهلاك في كل... وتتعانق الاستعارة مع التكرار (بقوله مرارا) في الكشف عن بشاعة المغالاة في المدح، وتصعيد الشعور بالرهبة؛ لما يخلفه الإسراف في المدح من التيه، والكبر، والغرور، والرياء، وكلها مهلكات، بالإضافة لما ينتج عنه من مشكلات اجتماعية، من احتقار الناس، والتكبر عليهم، ورواج أسلوب التزلف إلى هؤلاء بالباطل؛ لنيل رضاهم، إلى آخر هذه الحلقة المفرغة من الشرور[٦].

علي أن تنوع الخطاب النبوي في معالجة الخطأ بين اللين والشدة سنة من سنن الدعوة إلى الله في كل زمان، ويعود ذلك إلى تنوع نفوس أمة الدعوة وتباين طباعها،

---

(١) ينظر: لمحات من هدي النبي وبلاغته، د. عبد الغني محمد بركة: ١٠٤ مطابع دار التعاون للطبع والنشر ٢٠٠١م.

(٢) ينظر:الكتاب لسيبويه: ٣١٨/١، تح / عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ثانية ١٩٧٧م.

(٣) ينظر: لسان العرب: ويح.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ،كتاب(الشهادات)، باب (إذا زكى رجل رجلا كفاه)، رقم(٢٥١٩).

(٥) لسان العرب: ويل بتصرف.

(٦) ينظر: فتح الباري: ٤٧٨/١٠، و لمحات من هدي النبي وبلاغته: ١٠٥.

وتعدد أحوالها، كما يعود ذلك إيضا إلى طبيعة الخطأ، فإذا كان الخطأ مقدورا علي تفاديه من قبل المخطئ، ويسهل عليه اجتنابه يجابه مرتكبه بخطاب شديد، تحوطه عناصر الترهيب والتخويف، فالرجل الذي أكل من الحائط لم يشتد معه النبي (ﷺ) ولم يعنفه؛ لأن شهوة بطنه غلبته، فضلا عن جهله بما صنع... وكذا عُذر الأعرابي الذي بال في المسجد بجهله وحداثة عهده بالإسلام.. بخلاف هذا الرجل الذي لا توجد عنده أسباب قاهرة تدعوه إلى الإسراف في المدح، أو إثارة النعرة الجاهلية والعصبية القبلية المهلكة.. وكذا لا توجد أسباب ملحة لمن لبس خاتما من ذهب في الحديث الذي رواه عبد الله بن عباس(رضي الله عنهما) أن رَسُول الله (ﷺ) رأى خاتَمًا مِنْ ذهب في يدِ رجلٍ فنَزعه فطرحه، وَقالَ: "يَعْمدُ أحَدُكُمْ إلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا في يَدِهِ! " فقِيلَ للرَّجُلِ بَعْدَمَا ذهب رَسُول الله(ﷺ) : خُذْ خَاتَمَكَ انْتَفِعْ بِهِ. قَالَ: لَا واللهِ لا آخُذُهُ أبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رسولُ الله (ﷺ)[1].

فعلى الداعية أن يتحرى الطريقة الملائمة في أمره ونهيه، ويراعي أحوال الناس وظروفهم؛ لأنه إذا لم يمتثل ذلك ترتب عليه من الأضرار ما كان المسلمون في غنى عنه.. فالرسول (ﷺ) كان ينظر في خطابه إلى حال المخاطب، وإلي حجم الخطأ وأثره، فالذي أخطأ في صلاته لم يعنفه؛ لأنه جاهل به، ويعود ضرر خطئه عليه وحده، بخلاف الذي يسرف في المدح ويغالي في الممدوح، فضرر خطئه يتعداه إلى المجتمع بأسره، ويجلب له الهلاك والدمار.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب (اللباس والزينة)، باب (تحريم خاتم الذهب علي الرجال)، رقم (٢٠٩٠).

المطلب الرابع :-

في سياق العظة و الحث على صلة الرحم وحسن العشرة.

أولا :تنوع الخطاب النبوي في العظة إيجازا وإطنابا.

تنَوَع الخطاب النبوي في عرضه للمعاني بين الإيجاز والإطناب باختلاف المقامات والأحوال، وأدرك البلاغيون قيمة هذه المطابقة فألحوا على ضرورة مطابقة الكلام للمقام، واختيار ما يناسب حال المخاطب من طرق التعبير.

وفي ذلك يقول ابن قدامة: "ينبغي أن ينزل الإيجاز، والإطناب في الكلام حسب الحاجة إليه فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة، فيقْصُرُ عن بلوغ الإدارة، وألا يستعمل الإطالة في موضع الإيجاز، فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة"(١).

وقد "أمر يحيى بن خالد كاتبين أن يكتبا في معني، فأوجز أحدهما، وأطال الآخر، فقال للموجز: لما نظر في كتابه: لم أجد موضع مزيد، وقال للمطيل: لم أجد موضع نقصان، وقال جعفر بن يحيى: إذا كان الإيجاز كافيا، كان الإكثار هزرا، وإذا كان التطويل واجبا، كان التقصير عجزا" (٢).

ويروي أن المفضل بن محمد الضبي سأل أعرابيا: ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل، وقيل للمفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد(٣).

وعلى الرغم من كثرة إشارات المتقدمين إلى الإيجاز والإطناب، وإدراكهم الواعي لمقتضيات الأحوال، إلا أن معظم المتأخرين انحصر عندهم هذا الفهم في نطاق الجملة الواحدة، دون النظرة الكلية للسياق والمقام.

---

(١) كتاب نقد النثر، لابن قدامة: ٨٥بتصرف، دار الكتب المصرية -١٣٥١هـ . ١٩٣٣م.

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصفهاني: ٢٦، هذبه: إبراهيم زيدان، مطبعة الهلال بالفجالة . مصر ١٩٠٢م.

(٣) ينظر: البيان والتبيين: ٩٩/١.

يقول ابن الأثير عن تكرير الترادف، وهو من أنواع الإطناب: "هو موضع يكون التكرير فيه أوجز من لمحة الإيجاز، وأولى بالاستعمال" (١)، فمتى استدعي المقام التكرير كان أجدر بالاستعمال، وكان أوجز من الإيجاز برغم ما فيه من إطناب.

فالإيجاز إذن إيجاز موضوع لا إيجاز كلمات وجمل، وكذلك الإطناب، وهو ما ينبغي أن تكون عليه الدراسة في البيان النبوي، فالإيجاز هو ما عليه كلامه (ﷺ)، وهو السمة البارزة في بيانه، فإذا ما أطنب كان للمقام دور في هذا الإطناب من تفصيل مجمل أو شرح مبهم.. الخ، حتى إن كلامه (ﷺ) في خطبه الطوال لا يفارق الإيجاز؛ لأن الإيجاز سمة ملازمة لجملها.

فلم يكن الرسول (ﷺ) يطيل إلا لمقام اقتضاه، وحال استدعاه، تأمل ما حدَّث به حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) قال: "لقد خطبنا الرسول (ﷺ) خطبة، ما ترك فيها شيئا إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه وجهله من جهله، إن كنت لأري الشيئ قد نسيتُ، فأعرفه كما يعرفه الرجلُ الرجلَ إذا غاب عنه فرآه فعرفه" (٢)، فالمقام مقام توضيح لأحداث عظام، وإنذار وإعلام، وتفصيل وبيان، ولذا كان الإطناب هو ما اقتضاه الحال واستدعاه المقام... فما ترك الرسول (ﷺ) شيئا إلى قيام الساعة إلا ذكره، وهذا دليل علي طول الخطبة، وكثرة موضوعاتها وأحداثها، ولذا لم يحفظها أحد لطولها.

وتأمل الخطبة التي افتتحها الرسول (ﷺ) من بعد صلاة الفجر حتي الظهر، فيما حدث به أَبو زيد عمرِو بن أَخْطَبَ الأنصاري (رضي الله عنه) قَالَ: صلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ (ﷺ) الفَجْرَ، وَصَعِدَ المِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ

(١) المثل السائر، لابن الأثير: ١٦٢/٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب (القدر)، باب (وكان أمر الله قدرا مقدورا)، رقم(٣٣٧٥).

الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا "(١).

فتردد النبي (ﷺ) علي المنبر طوال اليوم من صلاة الفجر حتي غروب الشمس، مما يفرضه مقام الحال، ولذا لا يتعارض مع حديث سمرة (ﷺ)" كنت أصلي مع رسول الله (ﷺ) فكانت صلاته قصدا وخطبته قصدا "(٢)، فـ" لَا تَنَافِي بَيْنَهُمَا لِوُرُودِ مَا فِي حَدِيثِ أَبِي زَيْدٍ نَادِرًا اقْتَضَاهُ الْوَقْتُ وَلِكَوْنِهِ بَيَانًا لِلْجَوَازِ وَكَأَنَّهُ كَانَ وَاعِظًا وَالْكَلَامُ فِي الْخَطْبِ الْمُتَعَارَفَةِ "(٣)، وفي هذا دلالة علي أن الإطالة تغتفر في مقامات الوعظ، بخلافه في الخطب المفروضة، وأن الأمر بالتقصير والإيجاز مرهون بالخطب المفروضة دون مواطن الوعظ... فضلا عن أن هذه الخطبة كانت في أواخر حياته(ﷺ)، وأراد أن يغتنم هذه الأوقات في وعظ الأمة وإرشادها، ولذا طالت الخطبة وامتدت مناسبة لمقتضي الحال.

وتأمل خطبة الوداع وما بها من طول بيِّن" أَيُّهَا النَّاسُ! اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا. أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. أَلَا إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ... فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ... قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ "(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب (الجمعة)، باب(تخفيف الصلاة والخطبة)،ح(٢٨٩٢)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي . القاهرة، ثم صورته دار إحياء التراث ببيروت، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

(٢) مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، كتاب (الصلاة)، باب(في قصر الخطبة)، رقم(١٥٩٨)، تح: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع ـ السعودية، ط: الأولى١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.

(٣) تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري: ٢١/٣، دار الكتب العلمية – بيروت(دون).

(٤) صحيح مسلم، كتاب (الحج)، باب (حجة النبي (ﷺ)، رقم(١٢١٨).

فقد تعددت موضوعاتها، وتنوعت أخبارها، وكثرت تفصيلاتها، وما كان هذا الإطناب إلا لأن المقام اقتضاه، وحث عليه، حيث احتشد الجمهور من كل حدب وصوب، وجاءوا من بلاد شتى، وأصقاع متفرقة، وأحوالهم مختلفة، وأفهامهم متنوعة، وهو احتشاد لم يسبق له نظير، وقد فطن (ﷺ) أنه ربما لا يلقاهم بعده أبدا، فكانت وصاياه الجامعة، ونصائحه المتنوعة المودعة، وكان خطابه الذي استقصى فيه موضوعات شتى، وبصور مختلفة، حتي ترسخت هذه النصائح في نفوسهم جميعا، لا لبس فيها ولا غموض.

وهكذا جاء إطناب النبي (ﷺ) في هذه الخطبة رعاية لمقتضي الحال، من حال المخاطبين وحال الزمان والمكان والموضوع، بل وحال المتكلم ذاته(ﷺ)، وجاءت متعددة الأخبار والأحداث، لصلاحيتها لكل زمان ومكان؛ ولذا استدعت موضوعاتها بيانا شافيا شاملا من الرسول(ﷺ).

هذا بخلاف الخطب التي أوجز فيها النبي(ﷺ)، ومنها ما روته السيدة عَائِشَةَ (رضي الله عنها): " أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمْ الْمَرْأَةُ الْمَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ)، فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فقال: ﴿ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ ﴾، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَيْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا" [(١)].

فهذه خطبة قصيرة، خطبها الرسول (ﷺ) في موضوع محدد، وحادثة معينة، هو التحذير من المحاباة في أي أمر من الأمور، لا سيما الحدود، فلا شفاعة ولا محاباة في دين الله لجاه، أو لمال، أو لشرف "ولا نظر إلى صلة دنيوية – مهما تأصلت وعمقت – تطغى علي ما أوجب الله أن يقام لسلامة دينه، ولكرامة المؤمنين، وصيانة حقوقهم"[(٢)].

---

(١)صحيح البخاري،كتاب:(الحدود)،باب:(كراهة الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان)ح(٦٤٠٤).

(٢) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، د. كمال عز الدين: ١٠٦، دار اقرأ - بيروت، ط: أولى١٤١٤هـ - ١٩٨٤م.

والمقام هنا حري بهذا الإيجاز، لأنه مقام خاص بفئة خاصة اجترأت علي حدود الله، وأرادت تغييبها، فجاء الخطاب مناسبا لمقتضي الحال، فشتان بين الموضوع هنا والموضوعات السابقة، وشتان بين المُخَاطَبُ هنا وهناك، والزمان والمكان.

ثانيا :تنوع الخطاب النبوي في سياق الحث على صلة الرحمة إيجازا وإطنابا.

ومن تنوع الخطاب النبوي في سياق الحث على صلة الرحم إيجازا وإطنابا بتنوع مقتضي الحال، ما روته السيدة عائشة (ﷺ) "أن رجلا جاء إلى النبي (ﷺ) فقال: يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال، نعم "(١).

وحديث سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاس(ﷺ):"أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى (ﷺ)فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَمَاتَتْ قَبْلَ أَنْ تَحُجَّ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا ؟ قَالَ :نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ؟ قَالَتْ :نَعَمْ .فَقَالَ :فَاقْضُوا الَّذِي لَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ "(٢).

وفي رواية الترمذي عن ابْنُ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:"كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ (ﷺ) فَأَتَتِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ تَصَدَّقْتُ عَلَى أُمِّي بِصَدَقَةٍ فَمَاتَتْ فَرَجَعَتِ الصَّدَقَةُ إِلَى مِيرَاثًا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) وَجَبَ أَجْرُكِ وَرَجَعَتْ إِلَيْكِ صَدَقَتُكِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَلَمْ تَحُجَّ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ نَعَمْ فَحُجِّي عَنْهَا، قَالَتْ: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ، أَفَأَصُومُ عَنْهَا؟ قَالَ نَعَمْ صُومِي عَنْهَا" (٣).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب (الصيام)، باب(وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه)،ح(١٠٠٤).

(٢) أخرجة البخاري في صحيحه، كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة)، (من شبه أصلا معلوما بغير ليفهم السائل)، رقم(٧٣١٥).

(٣) أخرجة الترمذي في أبواب (الزكاة)، (باب ما جاء في المتصدق يرث صدقته)، رقم(٦٦٧).

وهكذا يأت الجواب -إيجازا وإطنابا -مناسبا لمقتضي حال السائل وطبيعة العمل المسئول عنه، فأجاب الرسول (ﷺ) علي الرجل الذي يريد أن يتصدق عن أمه بـ (نعم) إيجازا، دون (تصدق عليها)، بينما أجاب علي المرأة التي تريد أن تصوم وتحج عن أمها بالإطناب، بقوله (صومي عنها – حجي عنها) دون الاقتصار علي كلمة (نعم) كما في الأول، والفرق بين المقامين، أن الأول مقام سؤال عن وصول ثواب صدقة التطوع إلى الميت، وخاصة أنه عبادة مالية وربما يتصدق بالقليل، وقد يتصدق من مال المتوفَى نفسه، ومن ثم كان الإيجاز باقتصاره (ﷺ) على الجواب بـ (نعم) لظهور الأمر، وقلة المشقة فيه، وقرب جوازه.

أما المقام الآخر، فهو حديث عن وصول ثواب الصوم والحج عن الميت، فاستدعي الحديث عنهما الإطناب؛ لأنهما عبادتان بدنيتان يلحق القائم بهما مشقة عظيمة، وجهد كبير، ففي الصوم يحرم نفسه الطعام والشراب وسائر الملذات والمرغوبات، وفي الحج تناله مشقة السعي والطواف، فضلا عن مشقة السفر ذاته وغير ذلك من أعمال، فضلا عن أن القائم بهما يؤديهما بشخصه وذاته، ولذا كانا مظنة عدم وصول الأجر للميت، ومن ثم كان الإطناب بالتنصيص علي الفعل في الجواب؛ تأكيدا لقبوله، ودفعا لما قد يحدث من تردد في ذلك، بخلافه في الأول لظهور الأمر هناك، ولأنه ليس مظنة الشك والريب، فجاء الإيجاز والإطناب مناسبا لمقتضي الحال في المقامين.

ومن هذا أيضا حديث أسماء (ﷺ) قالت: قدِمَتْ علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله (ﷺ) فقلت: قدمتْ علي أمي وهي راغبة، أفأصل أمي، قال: "نعم صلي أمك"[1]، قال ابن علان: "قال: نعم، وهو كاف عن قوله (صلي أمك)، وأتي به تأكيدا

(١) أخرجه البخاري في كتاب(الأدب)، باب(صلة المرأة أمها ولها زوج)، رقم(٥٦٣٤)، وأحمد في مسنده، رقم (٢٦٩٦٠).

واهتماما"[1].. فالإطناب هنا بالنص علي (صلي أمك) بعد (نعم) جاء لغرابة الخبر في ذهن المخاطب، وعدم توقعه؛ لأن الكفر مظنة القطيعة والعقوق، حتي إن أسماء (ﷺ) امتنعت من إدخالها حتي يأذن لها رسول الله (ﷺ)، ولذا لم يقتصر علي (نَعَم) في الجواب، وإنما نص علي الصلة (صلي أمك) تأكيدا لأمر البر والصلة، وكأنه (ﷺ) بهذا الجواب أراد أن يعلي أمر البر والصلة، ويجعلها بمحازاة الصيام والحج، فكما أن المقِيم للصيام والحج يبني دينه ويعضده، كذلك من يصل رحمه يقوي صلته بربه ويعززها، ولذا كان الإطناب مطلبا اقتضاه الحال، واستدعاه المقام، وهو إطناب بليغ في سياقه؛ لما فيه من إيحاءات وظلال بأهمية صلة الرحم، والمحافظة علي بر الآباء مع كفرهم، وفيه ما فيه من تأنيس نفس الأم الكافرة، واستمالة لقلبها أن توجهه شطر هذا الدين الذي يوصي ببرها وصلتها رغم كفرها {لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾} [الممتحنة: ٨ ٩].

ثالثا :تنوع الخطاب النبوي في سياق الحس على حسن العشرة إيجازا وإطنابا.

ومما جاء فيه التنوع بين الإيجاز والإطناب في سياق الحث على حسن العشرة استجابة لداعي المقام ومراعاة لمقتضي الحال خطابه (ﷺ) النساء فيما رواه عمر(ﷺ)أن رسول الله (ﷺ)قال: "يا معشر النساء تصدقن فأني رأيتكن أكثر أهل النار، فقلن : وبم يا رسول الله ؟ فقال: تُكثِرن اللعن وتَكفُرنَ العَشِير... " [2].

و جاء في حديثه عنهن في رواية ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): "أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللهِ؟ قَالَ: يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد بن علان: ٣/ ١٦٢، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت – لبنان)، ط: الرابعة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب (الحيض)، باب (ترك الحائض الصوم)، رقم (٣٠٤).

الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ"(١).

ففي الرواية الأولي وصف النساء بأنهن (يكثرن اللعن ويكفرن العشير)، وفي الرواية الأخري اقتصر علي وصف النساء بـ (يكفرن العشير) فقط.. وهذا التنوع في الإيجاز والإطناب رغم أن المتحَدَث عنه واحد في الحالين، وهم النساء؛ لاختلاف المخاطَب ومقتضي الحال في كل.. فالرواية الأولى المخاطب فيها النساء، وهن المَعْنِيات بذكر هذه العيوب، فاحتاج الأمر إلى تفصيل ليقفن علي قبح عيوبهن وحقيقة أمرهن، فضلا عن ضعف عقولهن وقلة إدراكهن، مما يستدعي مزيدا من تفصيل مواطن التقصير وأسباب الهلاك؛ تخويفا وترهيبا.. بخلاف الخطاب في الرواية الأخري، فإن المخاطب بها الرجال، فلم يشأ أن يواجههم بما يكرهون، فوارى عنهم كثرة اللعن، لأنه مما يأنف منه الرجل ويأباه، فلا يطيق الرجل أن تسبه زوجته وتتطاول عليه، في حين أنه من الممكن أن يتغافل عن كفران العشرة وإنكار الإحسان، ومن ثم كان الإيجاز مناسبا لمقتضى الحال عندما بنى خطابه على الإيجاز واللمح، فاقتصر في خطاب الرجال علي صفة كفران العشير، وستر عنهم كثرة اللعن سترا علي النساء، وحفظا للبيوت؛ حتي تستمر الحياة، وتدوم العشرة.

(١) أخرجه البخاري في كتاب(تفسيركتاب الإيمان)، باب(كفران العشير وكفر دون كفر)،رقم(٢٣).

المطلب الخامس :-

في سياق التأثير والإقناع.

راعى الخطاب النبوي مستويات الفهم لدى المخاطبين في محاولة التأثير فيهم وإقناعهم؛ لأن خطابه جاء لكافة الناس، وعلى مختلف المستويات العقلية، فكانت حكمته سبحانه وتعالى لنبيه (ﷺ) أن يراعي في تبليغ دعوته ورسالته هذه المستويات على تنوعها، ولذا تنوعت أساليب الخطاب النبوي تبعا لأحوال المخاطبين، فكان الخطاب العاطفي، والخطاب العقلي، والخطاب الحجاجي.. وبراعة النبي (ﷺ) في استخدام هذه الأساليب بما يوافق أحوال المخاطبين يدل على حكمته وقدرته على الإقناع والتأثير في النفوس، لأن لكل نفس ما يناسبها في التعامل، فمن كانت نفسه تميل إلى الجدل والتفلت يناسبها الحجة والإقناع، ومن كانت نفسه تميل إلى الغلظة يناسبها اللين والمودة... وهكذا.

والخطاب الجدلي يعد واحدا من أهم الأساليب التي يستعملها العقل البشري في محاوراته، ويقوم على" الإتيان بالدليل والحجة والبرهان في إثبات الحق وإلزام الخصم بها"(١)، في لغة حوارية هادئة تخاطب العقل بواسطة الاستدلال المنطقي، ومن ذلك حواره (ﷺ) مع رجل مِنْ بَنِي فَزَارَةَ جاء إِلَى النَّبِيِّ (ﷺ) فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): "هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ: نَعَمْ! قَالَ: فَمَا لَوْنُهَا؟ قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟ قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا، قَالَ: فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلِكَ؟ قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ "(٢).

(١) الحواميم السبع (دراسة فنية تحليلية)، د. طالب عويد الشمري: ١١٢، سلسلة الإصدارات العلمية – المركز الوطني لعلوم القرآن والتراث الإقرائي – بغداد، ط: أولى ١٤٢٩هـ –٢٠٠٨م.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب(الطلاق)، باب(إذا عَرَّض بنفي ولده)، رقم(٥٣٠٥).

فالنبي (ﷺ) جادل الرجل الذي أساء الظن بزوجه حين وضعت غلاما أسود، بينما لونه ليس بأسود، فاستخدم الرسول (ﷺ) معه أسلوب الحجاج والاستدلال من واقع البيئة التي يعيش فيها الرجل، وانتزع الدليل المنطقي من مساقط حواسه، ففي قوله(ﷺ):(هل لك من إبل؟) تهدئة لانفعاله، بما يهيئه لمناقشة الموضوع بلا انفعال، فلم ينهره لشكه في زوجته، وإنما آثر الخروج به بعيدا عن جو المشكلة وأبعادها مستدرجا له إلى هذا المثل الواقعي؛ ليمتلك عقله ويصرفه إلى مجال التفكير الحسي والتقريب باستخدام الأمثلة الحسية الواقعية.. وفيه فوق ذلك صيغة الاستفهام، التي تتيح للمخاطب فرصة التفكير والمشاركة الذهنية، واستدراجه للوقوف على خطأ حكمه وظنه المبني على أساسٍ ضعيفٍ واهٍ، من خلال نتيجة منطقية(١).

وهنا كان استفهامه (ﷺ)" هل لك من إبل؟ "؛ ليلفت نظر الأعرابي إلى أن المسئول عنه هى الإبل التي تخصه، وأن له دراية كبيرة بأحوالها، وكان سؤاله" فما لونها؟ "تمهيدا لعقل المخاطب بتقبل ما سيلقى عليه من الحكم المتعلق بذلك، ليكون السؤال الأخير في هذه السلسلة المتصلة" فأنى أتاها ذلك؟ والمترتب على اعتراف الأعرابي بوجود الوَرِق في إبله، " والرسول(ﷺ) يطلب بهذا السؤال إجابة هي بمثابة الحكم العقلي الموصل إلى نقطة التقاء البدء والانتهاء، وهي في الوقت ذاته بمنزلة الحل المقنع في هذا الأمر "(٢).

وبذلك تبدو دقة الداعية الأعظم محمد (ﷺ) وحكمته العالية في معالجة نفس المرتاب، فغير دفة الكلام، واستدرج الرجل إلى جوهر القضية بفطنة عالية، ليوقفه على خطأ فهمه، فكان استدلالا مقنعا، وأتت استفهاماته المتتالية كافية شافية تأخذ بيد الحائر من ظلمات الشك إلى دروب اليقين، وكانت نهاية الحوار في نجاحه (ﷺ) في انتزاع الإجابة من لسان الأعرابي، " وتركه يستخلص الحجة بنفسه، ولم يقررها حتى لا

(١) ينظر: من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف، د. فتحيةالعقدة: ١٠١، ط: الأمانةأولى١٤١٤هـ . ١٩٩٣م.

(٢) السابق: ١٠١ بتصرف.

يحس بأن شيئا فُرض عليه، وكان هذا الحوار الحسي مُفحِما للرجل عن طريق الموازنة، وواضح أنه اعتمد على ما هو معروف عند المخاطب الذي يمتلك الإبل، حيث قاس على ظاهرة واقعية يعرفها كل عربي، وهي نزع الجمل إلى عرق من أبائه وأجداده، وكلما كان هناك استنادا إلى المألوف كان أدعى للقبول "(١).

يقول ابن حجر: " في الحديث ضرب المثل وتشبيه المجهول بالمعلوم تقريبا لفهم السائل، واستدل به لصحة العمل بالقياس، قال الخطابي: هو أصل في قياس الشبه، وقال ابن العربي: وفيه دليل على صحة القياس والاعتبار بالنظير "(٢)، فتم إقناع الأعرابي بقياس هذه على تلك، مع احترام عقل المخاطب، وجعله طرفا في الحوار الذي أبان له خطأه، وأعاد له ثقته في زوجته، وقضى على كل ما يزعزع هذه الثقة، أو ينال من هذا الكيان الأسري الصغير، فأعطاه بالحجة والدليل ما جعله يخضع لجانب الإقناع، ومن ثم التأثر بتغيير القناعات السابقة.

أما الأسلوب الثاني من أساليب الحكمة النبوية في الخطاب المؤثر في تغيير القناعات، فهو أسلوب الخطاب العقلي الذي يميل للمنطق في تحليل الأمور، ومعرفة عواقبها ونتائجها، فما وافق العقل منها فهو مقبول، وما رفضه العقل فهو مرفوض، وأسلوب المنطق يتصف بالحيوية؛ لما فيه من أسئلة موجهة إلى المخاطب ليجيب عنها(٣)، ومن ذلك محاورته (ﷺ) للشاب الذي استأذنه في الزنا، فعَن أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ فَتىً مِنْ قُرَيْشٍ أَتَى النَّبِيَّ(ﷺ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي فِي الزِّنَا. فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ وَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ، مَهْ! فَقَالَ: "ادْنُهْ "فَدَنَا مِنْهُ قَرِيباً، فَقَالَ: "أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ؟ ". قَالَ: لاَ، وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ

(١) التصوير الفني في الحديث النبوي، د. محمد لطفي الصباغ: ١٥٨، مكتب الثقافة الإسلامي . بيروت، ط: أولى١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م.

(٢) فتح الباري: ٣٥٣/٩.

(٣) ينظر: منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية، د. علي بن جابر الحربي: ١٤٣، الزهراء للإعلام العربي . القاهرة، ط: أولى ١٩٨٦م.

فِدَاكَ. قَالَ: "وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ". قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ؟". قَالَ: لاَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: "وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ "قَالَ: "أَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ". قَالَ: لاَ، وَاللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: "وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ". قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟". قَالَ: لاَ، وَاللهِ ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: "وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ". قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟. "قَالَ: لاَ، وَاللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ. قَالَ: "وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاَتِهِمْ". قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: " اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ". قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ"[1].

في الوقت الذي انتفض فيه الصحابة عند سماع استئذان الشاب في الزنا وزجروه وعنفوه (مه مه) إذا بالرسول (ﷺ) يعالج الموقف بطريقة مخالفة، يخاطب فيها عقل الشاب وضميره، في حوار هادئ يتسم بالرفق والحكمة؛ لإدراكه التام أن اللطف أجدى من التعنيف، وأن الإقناع بالرفق والحكمة هو الباب الصحيح لصرف العقول والقلوب عن المخالفات فأدناه منه؛ ليشعره بالأمان، وليضمد جراح الزجر ويبعده عن ضجيجه، ويهيئه تهيئة نفسية، وتكتمل التهيئة النفسية بالجلوس (فجلس)؛ لكي يبدأ في مشواره الذي يُعدلُه فيه عن قناعته بالزنا وحبه له.

فلم ينظر الرسول (ﷺ) إلى هذا الشاب على أنه فاقد الحياء والخير، وإنما أدرك حقيقة ما بداخله من شهوة غالبة، ولمس فيه جانب الخير، فسلك معه خطاب المنطق والإقناع العقلي، فساق له استفهامات متتابعة تحاصر عقله وفكره، وتنهال عليه لتفتت هذه الرغبة وتوحشها في قلبه، تأمل قوله: "أتحبه لأمك؟... لابنتك... لأختك... لعمتك... لخالتك" فإذا بالإجابة تنبع من داخل الفتى "لا... لا... لا... لا"، وقد فعلت هذه الأسئلة والأجوبة في نفس الفتى فعل السحر، وفي العقل حد الإقناع، فكيف

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، رقم(٢٢٢١١) .

يقبل الحر الزنا على أهله؟، وكيف يَقْبَلُ عليه عقله أن يرضاه للآخرين ما دام لا يرضاه لأهله؟!.. فأثابه إلى رشده، وأرجعه إلى طريق العفة والطهارة، حتى صار منكرا للرزيلة، كارها لها.. وكان يمكنه(ﷺ)أن يقتصرعلى قوله: "أتحبه لأمك؟ "، لكنه عدد المحارم زيادة في الإقناع، فمن يأتيها لا يخلو أن تكون أما أو بنتا أو أختا أو خالة لأحد من الناس.

فاستخدم الرسول (ﷺ) الإقناع العقلي في محاصرة الشاب؛ ليؤثر فيه، ويعود به إلى طريق العفة والاستقامة، لأن العقل السوي يستخدم في التأمل والتفكير الذي يصل به إلى الإقناع والقبول استنادا إلى منطق يقبله العقل، وجاء الخطاب العقلي ممزوجا بالخطاب العاطفي، حين أثار فيه عاطفة الأمومة، وقيمتها العالية الغالية، ومكانتها المقدسة في نفسه، فضلا عن إدنائه له.

وأسلوب الخطاب العاطفي شريك لأسلوب الخطاب العقلي والحجاجي في اسثارة النفس ودفعها إلى الإقناع والتأثير، حيث يعد أسلوب الخطاب النفسي من أساليب الحكمة النبوية المؤثرة في تغيير القناعات، ومن ذلك حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ) مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ..: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ "، قَالُوا: بَلَى، اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ. قَالَ: "أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ

شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ" قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ، حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) وَتَفَرَّقُوا [1].

عندما عاد المسلمون من غزوة حنين ظافرين منتصرين، أخذ الرسول (ﷺ) في توزيع الغنائم، فاختص قريشا، وزعماء القبائل بالنصيب الأوفى ليتألف قلوبهم، وهنا وجد الأنصار في أنفسهم، وتناوشتهم الظنون، فاشتعلت نار الفتنة، ولم يكن لها إلا رسول الرحمة بحِلمه وحكمته... وكان للخطاب العاطفي أثره القوي في إطفاء نار الفتنة والقضاء عليها.. فقد بدأالرسول (ﷺ)بأن جمعهم وحدهم، حتى لا يأخذ الأمر طابع التشهير بهم ولومهم على الملأ، حفاظا على مشاعرهم، وهو أدعى لقبول النصيحة.

لم يلجأ الرسول (ﷺ) إلى اتخاذ مواقف عدائية، وإنما توجه إليهم في لين فبدأ بتذكيرهم بنعمة الله عليهم، وكيف كانوا قبل الإسلام، وكيف صاروا بعده، حتى تأثروا واعترفوا بفضل الله وفضل رسوله عليهم، ثم أخذ في التصاعد بمشاعرهم بأسلوب أخَّاذ ملئ بالمدح والاعتراف بما فيهم من خير وأصالة، وأنهم قادرون على التسامي، فكأنه يقول: أعلم أنكم لو شئتم لقلتم حقائق لا يملك أحد أن يكذبكم فيها.. نعم جئتكم طريدا فآويتموني، وأخذ يستطرد في تعديد محاسنهم، ليدخل إلى قلوبهم بمشاعر النبوة الصادقة المتواضعة، وأخذ يطفئ النار المشتعلة بالحب.. وراح يحرك فيهم إيمانهم العميق "أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ "

وتأمل كيف خاطب عواطفهم ومشاعرهم، بقوله: "أما ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ " وما تشف عنه من دفقة

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ١٨/٢٥٣-٢٥٥، رقم(١١٧٣٠).

وجدانيـة، شـديدة التـأثير فـي المشـاعر والقلـوب، فالنـاس يعـودون بالـدنيا الفانيـة، وهـم يعودون بأحب خلق الله إلى الله.

وتأمل كيف وصل الرسول (ﷺ) إلـى أعمـاقهم وتغلغل فـي مشـاعرهم حـين قـال لـهم: "فوالذي نفس محمد بيده لو أن الناس سلكوا شِعبا وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبنـاء الأنصار وأبنـاء أبنـاء الأنصار".. خطاب عاطفي يرطب القلوب، ويحرك العواطف، ويستجيش المشـاعر، ويتغلغل في أركانهم، ويُقدمهم على غيرهم بمـا لـهم من فضل الإيواء والنصرة، أرأيت كيف يكـون الخطـاب العـاطفي فـي مـداواة أقـوى الفـتن، وأنكـى المعضـلات؟! تلكـم المـداواة التـي تعالج النفوس وتقضـي علـى وساوسـها، تجمـع ولا تفـرق، تبنـي ولا تهـدم، ترتفـع بالنـاس إلى سمو الغاية، وجمال العقيدة.

المطلب السادس:-

في سياق التغاضي عن بعض الأولويات تقديرا لحال المخاطب

لا أحد يستطيع أن ينكر أن الشريعة الإسلامية أتت بتعاليم جديدة، وأحكام لم تألفها عادات الناس وموروثاتهم، ونظرا لتعمق هذه العادات وترسخها في نفوسهم كان لابد من مراعاة ذلك عند التحول بالنفوس من موروثاتها وميولها التي ألفتها، حتى تحدث الاستجابة، ولذا تدرجت الشريعة الإسلامية الحنيفة في تكليفاتها حتى لا تصطدم بهذه المألوفات، فقاعدة السياسة الشرعية في الفقه الإسلامي تقوم على رعاية المصالح ودفع المفاسد، وعند التعارض تختار أرجح المصلحتين ودفع أكبر المفسدتين(١)، ومن هنا يلزم دفع مفسدة التنفيرعن الإسلام، وكره الناس له وبعدهم عنه، وذلك بتأليف قلوبهم، وتقوية إيمانهم، واستدعاء كل الأسباب المحققة لهذه الغاية، ومن هنا كثرت الشواهد النبوية الدالة على ترك بعض المعروف خشية من حدوث منكر أعظم منه، وترك بعض المصالح درءا لمفاسد أعظم منها، فقد تغاضى النبي(ﷺ)عن بعض المصالح الشرعية خوفا مما يؤول إليه من مفسدة أعظم،وراعى نفوس المدعوين؛حتى لا ينفروا من الدين.

وفي سبيل محاربة هذه العادات المألوفة، والتغلب على هوى النفوس، واستمالتها، وتأليفها، اتخذت الشريعة الإسلامية محورين في تحاشي الاصطدام بهذه العادات، المستحكمة في النفوس، أولها: نزول الحكم والتكليف متدرجا، حتى لا يشق على النفس، ويستحيل عندها فترفضه، وفي ذلك تقول السيدة عائشة (رضي الله عنها): "إِنَّمَا نُزِّلَ أَوَّلَ مَا نُزِّلَ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ لِلْإِسْلَامِ نُزِّلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نُزِّلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا: لَا نَدَعُ شُرْبَ الْخَمْرِ، وَلَوْ نُزِّلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا "(٢). فقد" أَشَارَتْ إِلَى الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي تَرْتِيبِ التَّنْزِيلِ وَأَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الدُّعَاءُ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّبْشِيرُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْمُطِيعِ بِالْجَنَّةِ وَلِلْكَافِرِ وَالْعَاصِي بِالنَّارِ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّتِ

(١)ينظر:القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة ، د.محمد مصطفى الزحيلي :٢٣٨/١، دار الفكر ـ دمشق، ط: أولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب (فضائل القرآن)، باب(تأليف القرآن)، رقم(٤٧٠٧).

النُّفُوسُ عَلَى ذَلِكَ أُنْزِلَتِ الْأَحْكَامُ وَلِهَذَا قَالَتْ: وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدَعُهَا، وَذَلِكَ لِمَا طُبِعَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ النَّفْرَةِ عَنْ تَرْكِ الْمَأْلُوفِ "(١).

كما راعى التدرج في تطبيق شرائع الإسلام؛ خوفا من أن تثقل عليهم فينفرون من الإسلام، ومن المشهور في ذلك، قوله (ﷺ) لمعاذ بن جبل حين أرسله ليدعو أهل اليمن: "إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قد فَرَضَ عليهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ على فُقَرَائِهِمْ... "(٢).

وفي ذلك ما فيه من مراعاة أحوال المدعوين وحداثة عهدهم بالإسلام والتلطف في خطابهم، يقول ابن حجر – رحمه الله –: "وأما قول الخطابي إن ذكر الصدقة أُخر عن ذكر الصلاة لأنها إنما تجب على قوم دون قوم. وأنها لا تتكرر تكرر الصلاة فهو حسن، وتمامه أن يقال بدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب، لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن النفرة "(٣).

أما المحور الآخر في تحاشي صدام النفوس مع أحكام التشريع الجديد عليها، فكان في التغاضي عن بعض الواجبات والطاعات، أو بعض المخالفات مؤقتا بترك ما هو أولى،؛ مراعاة لحال المخاطب، بدفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما، وترك أيسر المصلحتين لتحصيل أعظمهما، ومن ذلك ترك بناء الكعبة على ما كانت عليه في عهد قريش، دون إعادتها على قواعد إبراهيم (عليه السلام)؛ مراعاة لأحوال المخاطبين من أهل مكة، وحداثة إسلامهم، فخشى أن يصيبهم بسبب ذلك نفور ووحشة، وريبة تضر بدينهم؛ نظرا لما تمكن في قلوبهم من تعظيم بيت الله، فعن عائشة (رضي الله عنها)، أنها قالت: "أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) قَالَ لَهَا: يَا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، لَأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ..."(٤).

---

(١) فتح الباري: ٩/ ٤٠.

(٢)صحيح البخاري،كتاب(الزكاة)،باب(أخذ الصدقة من الأغنياء،وترد في الفقراء)،ح(١٤٢٥).

(٣) فتح الباري: ٣/ ٣٥٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب(الحج)، باب(فضل مكة وبنائها)، رقم(١٥٨٦).

وفي ذلك يقول المهلب: فيه أنه قد يَترُك شيئًا من الأمر بالمعروف إذا خشى منه أن يكون سببًا لفتنة قوم ينكرونه ويسرعون إلى خلافه واستبشاعه. وفيه: أن النفوس تحب أن تساس بما تأنس إليه فى دين الله من غير الفرائض، بأن يُترك ويُرفع عن الناس ما ينكرون منها. قال أبو الزناد: إنما خشى أن تنكره قلوب الناس لقرب عهدهم بالكفر، ويظنون أنما يفعل ذلك لينفرد بالفخر دونهم... تأمل كيف ترك رسول الله (ﷺ) ما فيه المصلحة خشية الوقوع في المفسدة، وفيه إشارة قوية إلى التغاضي عن إنكار المنكر في بعض الأحيان خوفا من الوقوع في أشد منه، وأن الإمام يسوس رعيته بما فيه صلاحهم، ما لم يكن محرما(١).

يقول النووي:" وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ لِقَوَاعِدَ مِنَ الْأَحْكَامِ مِنْهَا إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ أَوْ تَعَارَضَتْ مَصْلَحَةٌ وَمَفْسَدَةٌ وَتَعَذَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَ فِعْلِ الْمَصْلَحَةِ وَتَرْكِ الْمَفْسَدَةِ بُدِئَ بِالْأَهَمِّ لِأَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ)أَخْبَرَ أَنَّ نَقْضَ الْكَعْبَةِ وَرَدَّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ -عليه السلام - مَصْلَحَةٌ وَلَكِنْ تُعَارِضُهُ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ مِنْهُ وَهِيَ خَوْفُ فِتْنَةِ بَعْضِ مَنْ أَسْلَمَ قَرِيبًا وَذَلِكَ لِمَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ فَضْلِ الْكَعْبَةِ فَيَرَوْنَ تَغْيِيرَهَا عَظِيمًا فَتَرَكَهَا (ﷺ)"(٢).

ومن ذلك أنه (ﷺ) نهى عن إقامة حد السرقة بقطع الأيدي في الغزو؛ مخافة الوقوع في أشد منها، بأن يلتحق المقتص منه بالعدو، فعن أبي بُسْرِ بْنِ أَرْطَاةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ (ﷺ) يَقُولُ: " لَا تُقْطَعُ الأَيْدِي فِي الغَزْوِ "(٣).

وكثير من العلماء ومنهم الأَوْزَاعِيُّ: لَا يَرَوْنَ أَنْ يُقَامَ الحَدُّ فِي الغَزْوِ بِحَضْرَةِ العَدُوِّ مَخَافَةَ أَنْ يَلْحَقَ مَنْ يُقَامُ عَلَيْهِ الحَدُّ بِالعَدُوِّ، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ مِنْ أَرْضِ الحَرْبِ وَرَجَعَ إِلَى دَارِ الإِسْلَامِ أَقَامَ الحَدَّ عَلَى مَنْ أَصَابَهُ (٤).

ومن ذلك تغاضيه عن بول الأعرابي في المسجد حتى يفرغ منه، فيما رواه أنس بن مالك (ﷺ)قال: بينما نحنُ في المسجد مع رسول الله (ﷺ)، إذ جاء أعرابيّ، فقام يبول في

(١) ينظر: شرح صحيح البخارى لابن بطال: ٢٠٥/١، ١٦٥/٢.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم:٨٩/٩.

(٣) أخرجه البخاري في أبواب(الحدود)، باب(ما جاء أن لا تقطع الأيدي في الغزو)، رقم(١٤٥٠).

(٤) السابق: نفسه.

المسجد، فقال أصحابُ رسول الله (ﷺ): مَهْ، مَهْ، فقال رسول الله (ﷺ): ﴿لا تُزْرِمُوه، دَعُوه، فتركوه حتى بال، ثم إنَّ رسول الله (ﷺ) دعاه، فقال له: إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر، إنما هي لذكر الله، والصلاة، وقراءة القرآن﴾ (١).

فالرسول (ﷺ) ما تركه يبول ويكمل بوله إلا لما سيترتب على منعه من ظهور مفسدة أعظم ومنكر أشد من منعه من البول، وإنما تركوه يبول في المسجد لأنه كان شرع في المفسدة، فلو منع لزادت، إذ حصل تلويث جزء من المسجد، فلو مُنع لدار بين أمرين، إما أن يقطعه فيتضرر، وإما أن لا يقطعه فلا يأمن من تنجيس بدنه أو ثوبه أو مواضع أخرى من المسجد.. فما منعهم الرسول (ﷺ)، وما كفهم عنه إلا للمصلحة الراجحة، بدفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما، وتحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما؛ فإن البول فيه مفسدة، وقطعه على البائل فيه مفسدة أعظم منها، فدفع أعظمهما بأيسر المفسدتين، وتنزيه المسجد عنه مصلحة، وترك البائل إلى الفراغ مصلحة أعظم منها، فحصل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما (٢).

ومن ذلك أيضا موافقته (ﷺ) على شرط امرأة أن تبايعه على الإسلام بعد مشاركة أهل بيت في النياحة على متوفى، فعن أُمِّ عَطِيَّةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: "بَايَعْنَا النَّبِيَّ (ﷺ) وَأَخَذَ عَلَيْنَا فِيمَا أَخَذَ أَنْ لَا نَنُوحَ"، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: إِنَّ آلَ فُلَانٍ أَسْعَدُونِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَفِيهِمْ مَأْتَمٌ فَلَا أُبَايِعُكَ حَتَّى أُسْعِدَهُمْ كَمَا أَسْعَدُونِي، فَقَالَتْ: فَكَأَنَّ رَسُولَ الله (ﷺ) وَافَقَهَا عَلَى ذَلِكَ، فَذَهَبَتْ فَأَسْعَدَتْهُمْ ثُمَّ رَجَعَتْ فَبَايَعَتِ النَّبِيَّ (ﷺ)، قَالَ: فَقَالَتْ أُمُّ عَطِيَّةَ: فَمَا وَفَتْ امْرَأَةٌ مِنَّا غَيْرُ تِلْكَ، وَغَيْرُ أُمِّ سُلَيْمٍ بِنْتِ مِلْحَانَ" (٣).

فالرسول (ﷺ) تركها تفعل النياحة، وهو أمر محرم، لتحصل أعظم المصلحتين، وهي المبايعة على ترك النياحة ما عاشت المرأة، بترك أيسرهما، وهو الامتناع عن المشاركة مرة واحدة في النياحة؛ مراعاة لحالها.

---

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب (الطهارة)، رقم: (٥٦).

(٢) ينظر: كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحُ البُخَاري،للشنقيطي: ١٥٣/٤، ١٥٧/٥.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب(الجنائز) ، باب (التشديد في النياحة)، رقم (٩٣٧).

المطلب السابع :-
تباين المقامات قوة ورقة تقديرا لحال المخاطب.

تنوعت خطابات النبي (ﷺ) قوة ورقة ، بحسب كثرة المؤكدات وقلتها ، رعاية لحال المخاطب، ذاك الذي تفاوتت أحواله وتعددت، كالطبيب الماهر الذي يعطي من الدواء الجرعة المناسبة لحال المريض، في مهارة فنية خفيت حتى على الفيلسوف الكندي، فدفعته إلى رحلة علمية، فقد رُويَ عن ابن الأنباريِّ أَنه قال: ركبَ الكِنْديُّ المتفلسِف إلى أبي العبّاس وقال له: إني لأَجِدُ في كلامِ العَرب حَشْواً! فقال له أبو العباس: في أي وضع وجَدْتَ ذلك؟ فقال: أَجدُ العربَ يقولون: "عبدُ الله قائمٌ"، ثم يقولون "إنَّ عبدَ الله قائمٌ"، ثم يقولونَ: "إنَّ عبدَ اللهَ لقائمٌ"، فالألفاظُ متكررةٌ والمعنى واحدٌ. فقال أبو العباس: بل المعني مختلفةٌ لاختلافِ الألفاظِ، فقولُهم: "عبدُ الله قائمٌ"، إخبار عن قيامه وقولهم: "إن عبد عبدَ الله قائمٌ"، جوابٌ عن سؤالِ سائلٍ وقوله: "إنَّ عبدَ اللهِ لقائمٌ"، جوابٌ عن إنكارِ مُنْكِرٍ قيامَهُ، فقد تَكرَرَّت الألفاظُ لتكرُّرِ المعاني..."[1]، فلا يخلو حال المخاطب من إحدى ثلاث حالات، أن يكون خالي الذهن من الخبر، أو متردد فيه، أو منكر له، وهو ما عرف بأضرب الخبر الابتدائي والطلبي والإنكاري، والذي عقب الإمام عبد القاهر في بيان خطورته بقوله: " وإذا كان الكنديُّ يذَهْبُ هذا عليهِ حتى يَرْكَبَ فيه رِكُوبَ مستفهِمٍ أو معْترِضٍ، فما ظنُّكَ بالعامَّة، ومَنْ هو في عِدادِ العامَّة، ممَّنْ لا يَخْطُرُ شبْهُ هذا ببالِه؟"[2].

فجاءت أخبار النبي (ﷺ) خالية من التوكيد في مقام التعليم، فلما كانت وظيفة التعليم هي المواكبة للأحوال النبوية، كان غالب أخباره (ﷺ) لإيصال فائدة الخبر إلى المخاطب خالي الذهن خلو ذهن كل متعلم مستشرف لسماع معلومة جديدة تستقر في خلده دونما تردد أو إنكار.. من ذلك ما رواه ثَوْبَانٌ، مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) أنه (ﷺ)قال: "مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ"[3].

---

(١) دلائل الإعجاز: ٣١٥.

(٢) السابق: ٣١٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه،كتاب(البر والصلة والآداب)،باب(فضل عيادة المريض)،رقم(٢٥٦٨).

جاء الكلام سلسا، سائغا، خاليا من التأكيد، وهو شأن كل فائدة جديدة إذا صادفت قلوبا خالية صافية استقرت فيها بدون عناء.

وعنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ(ﷺ)أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: "تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ، عَلَى من عرفت، وعلى من لم تعرف "(١).

ومنه ما رواه طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ:أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إلى رسول الله (ﷺ) ثَائِرَ الرَّأْسِ، فَقَالَ :يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا .فَقَالَ :أَخْبِرْنِي مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ، فَقَالَ:شَهْرَ رَمَضَانَ إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا .فَقَالَ :أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ، فَقَالَ :فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ، قَالَ :وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، لَا أَتَطَوَّعُ شَيْئًا، وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا .فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ)أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ، أَوْ :دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صدق"(٢).

جاءت الأخبار السابقة خالية من التأكيد؛ لأن المقام مقام تعليم لأركان الزكاة في الإسلام مع رجل يجهلها، فلم يكن مترددا ولا منكرا لها، ولذا استقبلها بتصديق دونما الحاجة إلى تأكيد.

وفي قوله (ﷺ) عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَظْمًا سَمِينًا أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الْعِشَاءَ "(٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب(الاستئذان)، باب(السلام للمعرفة وغير المعرفة)، رقم(٥٨٨٢).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب(الصوم)، باب(وجوب صوم رمضان)، رقم(١٧٩٢).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب (الجماعة والإمامة)، باب(وجوب صلاة الجماعة)، رقم(٦١٨).

" قيل: إن الحديث وارد في شأن المنافقين، والمؤمنون خارجون عن هذا الوعيد! إذ الوعيد ليس من جهة أنهم إذا سمعوا النداء يسوغ لهم التخلف عن الجماعة، بل من جهة أن التخلف ليس من شأنهم وعادتهم، وأنه مناف لحالهم؛ لأنه من صفة المنافقين، ولو دخلوا في هذا الوعيد ابتداء لم يكن بهذه المثابة "(١).

فالمقصود تفخيم أمر الجماعة بالتغليظ والتشديد على مضيعها، مع ملاحظة كثرة التأكيدات المشعرة بقوة الحالة الغضبية وعمق دلالتها على النفس المتوعدة.

كان الرسول (ﷺ) أبلغ البلغاء في مراعاة حال المخاطبين على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم، فكان يخاطب كل مستويات المجتمع بما يوافق حالها، مما كان له أثره الكبير على أساليب التوكيد قلة وكثرة في المواقف المختلفة.. فبينما أسلوبه في خطاب المشركين وأعداء الدعوة يمتاز بقوة العبارة لكثرة المؤكدات التي تمنحها القطع والحسم، نجد هذا الأسلوب يرق ويلين عندما يدخل الإيمان إلى القلوب ويخالط بشاشتها، فتجد سلاسة العبارة ورقتها وخلوها من الشدة والقوة، بميله إلى الأسلوب التعليمي الذي يقرر الأحكام ويوضحها، مراعيا في كل موقف حال السامعين والمتلقين.

ولا يخفى ما لأسلوب التوكيد في البيان النبوي من تأثير في نفوس المخاطبين، وحملهم على الاقتناع، لما حققته من قلب لعقائد الناس من الضلال إلى الهدى، وتكوين مجتمع قوي الدعائم، لرسوخ الإسلام في نفوس أفراده، فلم يخاطب الرسول (ﷺ) نفوسا خالية يتقرر فيها أي شيئ، بل نفوسا موقنة بعقائد متأصلة في نفوسهم، فكان لأسلوب التوكيد أثره في اقتلاع جذور العقيدة الفاسدة، فنوع الرسول (ﷺ) في أوضاع اللغة وطرائق التوكيد، مقدرا لكل شيئ قدره، فأتى متناغما بدقة مع مقتضى حال المخاطب، فلم يدع له فرصة للتردد أو الإنكار.. بخلاف مشركي مكة وأعداء الدين، الذين أعلنوا حربا شرسة على الله ورسوله؛ لخوفهم من قدرته (ﷺ) على إقناع الناس بما أوتى من حجج دامغة، وأساليب قوية، على رأسها التوكيد .. وتعد حادثة جبير بن مطعم خير

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح =(الكاشف عن حقائق السنن): ١٢٧/٤،تح: د.عبد الحميد هنداوي ،مكتبة نزار مصطفى الباز(مكة المكرمة – الرياض)،ط: أولى١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

دليل على ذلك، حين دخل على الرسول (ﷺ) وهو يقرأ قوله تعالى: {وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ} [الطور: ١-٢] إلى قوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ} [الطور: ٧-٨] فقال جبير: خشيت أن يدركني العذاب، ثم أسلم [١]، وهنا أدرك جبير بفطرته أثر التوكيد في وقوع العذاب، فعجل بالدخول في الإسلام.

تأمل قوله(ﷺ)في خطاب المشركين: " والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانًا، وبالسوء سوءًا، وإنها لجنة أبدًا، أو لنار أبدًا "[٢].

جاء التأكيد عن طريق القسم، ولامه، ونون التوكيد الثقيلة التي أكسبت الكلام قوة لا تكاد تلحظ مع غيرها؛ لتحسم قضية البعث، تلك القضية الغيبية، التي لاقت إنكارا شديدا من قبل المشركين وغيرهم.

وفي قوله (ﷺ) عن أبي عُبَادَةَ (رضي الله عنه): " مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. . . أدخله اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ "[٣]، تقرير لقضية الألوهية والوحدانية بوسائل التأكيد المختلفة حتى تصبح عقيدة راسخة في القلوب، ودائما ما تصاغ بأسلوب القصر، بطريق النفي والاستثناء، أقوى طرق القصر؛ لردع المشركين، وحسما لهذه القضية في مواجهة إنكارهم الشديد.

وفي رده على إنكار النصارى رفع عيسى (عليه السلام)، يقول(ﷺ) فيما رواه أَبو هُرَيْرَةَ(رضي الله عنه)": وَاللَّهِ! لَيُنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا. فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ. وليقتلن الْخنزير. ولضعن الْجِزْيَةَ. وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا. وَلَتَذْهَبَنَّ الشحناء والتباغض والتحاسد. وليدعون إلى المال

(١) ينظر: إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني: ٢٧، تح السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر، ط: خامسة١٩٩٧م.
(٢) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: ١٤٧/١.
(٣) صحيح البخاري،كتاب(أحاديث الأنبياء)،باب(قوله يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم)،ح(٣٤٣٥).

فلا يقبله أحد "[1].. جاء التوكيد بالقسم واللام واسمية الجملة لمواجهة شدة إنكار النصارى فكرة رفع عيسى بن مريم إلى السماء، ويقولون بصلبه وقتله.

وتأمل تأكيده (ﷺ) لرسالته في مواجهة إنكارقريش الشديد لها، في خطبته الأولى التي صعد فيها إلى الصفا مناديا بأعلى صوته: يا معشر قريش، حتى إذا اجتمعوا عليه من كل مكان، قال: " أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ فيقولون: نعم، ما جربنا عليك كذبا، ثم يقول: "إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة. . . "[2].

وفي موقف آخر لسهيل بن عمرو في صلح الحديبية، عندما جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: "اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ (ﷺ) الْكَاتِبَ فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَالَ سُهَيْلٌ أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. . . فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ثُمَّ قَالَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنْ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي. . . " [3].

وهنا حشد رسول الله (ﷺ) الكثير من وسائل التأكيد، من قسم، وإنَّ، واسمية الجملة؛ حتى يعصف بإنكار سهيل بن عمرو، مهما بلغت قوته؛ ليتقرر في نفوس سامعيه (ﷺ) تقريرا لا يتطرق إليه شك.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب (التوحيد)، باب(نزول عيسى بن مريم)، رقم (١٥٥).

(٢) جمهرة خطب العرب: ٥٢/١.

(٣)صحيح البخاري،كتاب(الشروط)،باب(الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب)،ح(٢٧٣٢).

وجاء مثله في خطاب اليهود الذين أنكروا رسالته (ﷺ) في قوله: "يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَيْلَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ فَأَسْلِمُوا . . . " [(١)] .. أكد (ﷺ) كلامه بالعديد من المؤكدات؛ حتى لا يدع مجالا في نفوسهم لشك، أو تردد في صدق رسالته.

وفيما يرويه أبو برزة يقول: "أَتَى رَسُولُ اللهِ(ﷺ) بِمَالٍ فَقَسَمَهُ، فَأَعْطَى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ، وَمَنْ عَنْ شِمَالِهِ، وَلَمْ يُعْطِ مَنْ وَرَاءَهُ شَيْئًا، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ وَرَائِهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَا عَدَلْتَ فِي الْقِسْمَةِ، رَجُلٌ أَسْوَدُ مَطْمُومُ الشَّعْرِ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) غَضَبًا شَدِيدًا، وَقَالَ: "وَاللهِ لَا تَجِدُونَ بَعْدِي رَجُلًا هُوَ أَعْدَلُ عَلَيْكُمْ مِنِّي "[(٢)]، فقد رد على إنكار الأعرابي عدله وعدم تأدية الحقوق على وجهها بأبلغ أسلوب عن طريق القسم بالله، مقررا عدالته (ﷺ)، ومزيلا لأي شك أو إنكار في ذلك.

والمنكر ليس شرطا أن يكون من اليهود والمشركين، فقد يكون من الصحابة أنفسهم، كقوله (ﷺ) في صلح الحديبية" قالوا: أُوحِيَ إلى رسولِ الله (ﷺ)، فخرجْنا مع الناس نُوجِفُ، فوجدْنا النبيَّ (ﷺ) واقفاً على راحِلتِه عند كُراع الغَمِيمِ، فلما اجتمعَ عليه الناسُ قرأ عليهم: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١} [الفتح: ١] فقالَ رجل: يا رسولَ الله، أفَتْحٌ هو؟ قال: "نعم، والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ" [(٣)].. فمقام الكلام وحال المخاطب يقتضي هذه التأكيدات، من قسم، وإنَّ، واللام الداخلة على خبرها، نزعا لما حاك في صدر السائل، الذي وكأنه بسؤاله ينكر هذا، وثقة ينشرها الرسول (ﷺ) بين أصحابه؛ لما يعقب هذا الصلح من فتح قريب[(٤)].

---

(١)صحيح البخاري، كتاب(فضائل الصحابة)،باب(هجرة النبي(ﷺ)وأصحابه إلى المدينة)،(٣٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب(استتابة المرتدين والمحاربين وقتالهم)، باب(من ترك قتال الخوارج للتأليف)، رقم(٦٩٣٣).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب (الجهاد)، باب(فيمن أسهم له سهما)، رقم(٢٧٣٦).

(٤) ينظر: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية: ١٠٩.

المبحث الثاني:-

تنوع الخطاب النبوي تقديرا لما بين المخاطبين من فروق وإمكانات .

المطلب الأول:-

تنوع الخطاب النبوي بتنوع جنس المخاطب

خاطب الرسول (ﷺ) الأنثى كما خاطب الرجل، وخصها بالحديث كما خص الرجل، وراعى في كل منهما جنسه وطبيعته، فإذا كانت الأنثى تشترك مع الذكر في الكثير من السمات، إلا أن شخصيتها تباين شخصيته في بعض الأحيان، نظرا لطبيعة تكوينها الجسدي والعاطفي الذي يحركها في كثير من الأحيان... وقد راعى الرسول (ﷺ) في خطابه طبيعة كل من الفريقين، فجاء خطابه (ﷺ) متنوعا تبعا لتباين طبيعة الطرفين، فطبيعة المرأة الضعف الجسدي، والرقة والنعومة، والعاطفة الجياشة، والمشاعر الفياضة، وقد راعى النبي (ﷺ) هذه الطبيعة في قوله: "رفقا بالقوارير" [1]، وقوله "ويحك يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير" [2]، راعى النبي (ﷺ) طبيعة المرأة، وضعفها، وشدة تأثرها، وسمى النساء قوارير؛ لضعف عزائمهن تشبيها لهن بقارورة الزجاج، والقوارير يسرع إليها الكسر. وكان أنجشة يحدو بهن، وينشد من القريض والرجز ما فيه شبيب، فلم يأمن أن يفتنهن أو يقع بقلوبهن حداؤه، فأمره بالكف عن ذلك، فشبه عزائمهن في سرعة تأثير الصوت فيهن بالقوارير في إسراع الكسر إليها، فخاف عليهن الفتنة من سماع النشيد [3].

كما أن المرأة أشد غيرة من الرجل، وشاهدُ ذلك قوله (ﷺ): "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا" [4].

---

(١)صحيح البخاري،كتاب(الأدب)،باب(مايجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه)،ح(٥٧٩٧).

(٢) ينظر: السابق نفسه.

(٣) ينظر: فتح الباري: ١٠/ ٥٤٥-٥٤٦،وإكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم، القاضي عياض: ٢٨٧/٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (النكاح)، باب: (الوصية بالنساء)، رقم(٥١٨٤).

ومن ذلك أيضا، ما رواه أنس(ﷺ) قال: "كان الرسول (ﷺ) عند بعض نسائه، فأرسلت إحدي أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي (ﷺ) في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي(ﷺ) فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: غارت أمكم، ثم حبس الخادم حتي أتى بصحفة من التي هو في بيتها، فدفع الصحفة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كُسر فيه" [(١)].

راعى الرسول (ﷺ) في هذا الحديث فطرة المرأة وطبيعتها، حيث الغيرة التي تختلط بلحمها ودمها، فقوله: غارت أمكم "اعتذار منه (ﷺ) لئلا يحمل صنيعها علي ما يذم، بل يجري علي عادة الضرائر من الغيرة فإنها مركبة في النفس بحيث لا يقدر على دفعها"[(٢)]، فالمرأة مهما بلغ صلاحها، فلابد أن يكون فيها شيئ من العوج، ولذلك شبه المرأة بالضلع، وبين أن أعوج ما في الضلع أعلاه، وكذا المرأة أعوج ما فيها أعلاها، وهو رأسها وفيه اللسان والعقل.. إشارة إلى أن الغيرة جزء لا ينفصل عن تكوين المرأة، وهو داخل في عوجها ونقص عقلها، وهي طبيعة تستدعي رعاية خاصة.

كما راعي البيان النبوي في خطاب الأنثى الألفاظ المعبرة عن الجمال والحسن، فعدل عن الاسم الذي تستقبحه العقول، وتنفر منه النفوس، إلى ما هو أحسن وأجمل؛ مراعاة لطبيعة المرأة التي تنجذب إلى ألفاظ الجمال والحسن، وتبحث عنها، وتنفعل بها، وتتفاعل معها.. بخلاف طبيعة الرجل التي تنجذب أكثر إلى الجوهر والصفات المعنوية والنفسية، ومن هنا تنوع الخطاب النبوي تبعا لهذا التنوع.. ومن ذلك اهتمامه (ﷺ) بتغيير أسماء النساء إلى أسماء جميلة حسنة، تترك انطباعا حسنا لصاحبته وللسامعين، فمن خطابه (ﷺ)للأنثى، ما روته عَائِشَةَ (ﷺ)، قَالَتْ: جَاءَتْ عَجُوزٌ إِلَى النَّبِيِّ (ﷺ) وَهُوَ عِنْدِي، فَقَالَ: لَهَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): "مَنْ أَنْتِ؟ "قَالَتْ: أَنَا جَثَّامَةُ الْمُزَنِيَّةُ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (النكاح)، باب: (الغيرة)، رقم(٤٩٢٧).

(٢) فتح الباري: ١٥٩/٥

فَقَالَ: "بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ الْمُزَيَّنَةُ، كَيْفَ أَنْتُمْ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنَا؟ " قَالَتْ: بِخَيْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا خَرَجَتْ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ هَذَا الْإِقْبَالَ؟ فَقَالَ: "إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ" (١).

فجثامة: اسم ثقيل يجمع في معناه أشياء كثيرة وكريهة من البلادة والكسل، لذا غيره الرسول (ﷺ) إلى اسم يدل إلى الحسن، ويسير نحو الجمال والزينة التي تعشقها الأنثى، وتتغنى بها، وفي اللفظ الذي عبر به الرسول (ﷺ) (حسانة) إشارة إلى الحسن وجمال الشكل، وهو ما تتهادي إليه الأنثى، وتهفو إليه، وتسعى دائما في طلبه.

ومن ذلك أيضا تغيير اسم عاصية بنت عمر إلى اسم جميلة، فيما رواه عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) غير اسم عاصية، وقال لها: "أنت جميلة" (٢)، وهو اسم حسن، محبب إلى نفس الأنثى وغيرها، فكان من الممكن أن ينعتها الرسول (ﷺ) بـ (مطيعة) مثلا، بما يتناسب بالتضاد مع اسم (عاصية)، كما فعل مع سواها، إلا أنه(ﷺ) راعى في خطاب الأنثى طبيعتها التي تنطلق منها في اتجاهاتها، وسلوكياتها، ورغائبها، وردود أفعالها من منطلق عاطفي، تتجسد أبعاده في الرقة والنعومة، وحب الزينة، ولذا نعتها ووصفها بصفة شكلية المظهر، وهي (الجمال) تلك الصفة التي تبعث الإشراق والأمل والحياة في نفس الأنثى لفظا ومعنى وصورة... بخلاف الرجل، فلا تجذبه الصفات الشكلية للمظهر في المقام الأول، وإنما الصفة المعنوية الجوهرية أكثر، فعن سعيد بْنِ الْمُسَيِّبِ،عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ(ﷺ) قَالَ لِجَدِّهِ، جَدِّ سَعِيدٍ: "مَا اسْمُكَ؟ " قَالَ: حَزْنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): "بَلْ أَنْتَ سَهْلٌ" فَقَالَ: لَا أُغَيِّرُ اسْمًا سَمَّانِيهِ أَبِي، قَالَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ: "فَمَا زَالَتْ فِينَا حُزُونَةٌ بَعْدُ" (٣).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب (الإيمان): ٦٢/١، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب(الآداب)، باب(كراهة التسمية بالأسماء القبيحة)،رقم(٢١٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب (الأدب)،باب(تحول الاسم إلى اسم أحسن منه)، رقم(٦١٩٣).

واسم سهل يقوم على صفة معنوية وأخلاقية، تسم صاحبها بالرقة والتيسير والرحمة؛ لأن "الحَزْنَ ما غلُظ من الأرض، ويقال: في خلق فلان حزونة: أي غلظة وقساوة، وكأن النبي (ﷺ) كرهه لهذا،، فأبدله اسما ينشر البشر والتفاؤل.. وكما في حديث بَشِيرُ بْنُ مَيْمُونٍ، عَنْ عَمِّهِ أُسَامَةَ بْنِ أَخْدَرِيٍّ "أَنَّ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ أَصْرَمُ كَانَ فِي النَّفَرِ الَّذِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ (ﷺ)، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: أَنَا أَصْرَمُ. قَالَ: بَلْ أَنْتَ زُرْعَةُ"(١).

وهكذا اختار الرسول (ﷺ) للذكور أسماءً بعيدة – في الغالب – عن الصفات الشكلية والمظهر الخارجي؛ مراعاة لطبيعة الرجال الذين لا يحفلون كثيرا بالمظهر الخارجي احتفاءهم بالمخبر والجوهر، ولذا قال في خطاب الأنثى عندما سألته عَائِشَةُ(رضي الله عنها): "قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَغْزُوا وَنُجَاهِدُ مَعَكُمْ؟ فَقَالَ: لَكِنَّ أَحْسَنَ الْجِهَادِ وَأَجْمَلَهُ الْحَجُّ، حَجٌّ مَبْرُورٌ "(٢) بينما جاء في خطاب الرجال بلفظ (أفضل) في قوله:"أَفضل الحجّ: العَجُّ والثَّجُّ" وقوله: "أَفْضَلُ الجهاد: من عُقِرَ جوادُهُ، وَأُهْرِيقَ دَمُهُ"، وقوله: "أَفْضَلُ الجهادِ: من أصْبَحَ لا يَهُمُّ بظلم أحدٍ" (٣).

<u>وإذا كانت طبيعة الرجل تتسم بقوة الإرادة والتحمل والصبر، والشدة والتماسك والصلابة، فإن المرأة تخالف ذلك في الغالب، فهي لرقة قلبها وغلبة العاطفة عليها تقع في الجزع والتسخط؛</u> لأنها أكثر ضعفا، وأسرع استجابة للدوافع، وأضعف تمسكا بإرادتها، وأكثر جزعا عند المصائب، ومن هنا تباين الخطاب النبوي بين الطرفين، فكثيرا ما حث المرأة على الصبر رعاية لهذه الطبيعة، ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: مر

(١) أخرجه أبو داود في كتاب(الأدب)، باب(تغيير الاسم القبيح)، (٤٦٥٤). والصرم من القطع، سماه زوعة من الزرع ضد القطع.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (الحج)، باب (حج النساء)، رقم(١٨٦١).

(٣) تنظر هذه الأحاديث: جمع الجوامع (الجامع الكبير)، للسيوطي: ٧٣٣/١،والعج: رفع الصوت بالتلبية –والثَّجُّ: صب دماء الهدي، أراد بهما الاستيعاب، فبدأ بالإحرام الذي هو الإهلال، وانتهى بالتحلل الذي هو إهراق دم الهدى.

النبي (ﷺ) بامرأة تبكي عند قبر، فقال: أَنَسِ بن مَالِكٍ (رضي الله عنه) مَرَّ النبي (ﷺ) بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ فقال: "اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي"، قالت: إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، ولم تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لها إنه النبي (ﷺ) فَأَتَتْ بَابَ النبي (ﷺ) فلم تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ فقالت: لم أَعْرِفْكَ فقال: "إنما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى" (١).

أمرها النبي (ﷺ) بالصبر والتماسك، لما وجده منها من ضعف وبكاء جَزِع، وقدمه على الأمر بالتقوي؛ تعريضا بحالها، وإيحاءً قويًا بما صاحب بكاءها "من قَدْرٌ زَائِدٌ مِنْ نَوْحٍ أَوْ غَيْرِهِ وَلِهَذَا أَمَرَهَا بِالتَّقْوَى" (٢).. و "يؤيده أن في مرسل يحيى بن أبي كثير المذكور فَسَمِعَ مِنْهَا مَا يُكْرَهُ فَوَقَفَ عَلَيْهَا" (٣)، ويؤكد جزعها كذلك التعريض بـ(إنما) في: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى" بما في (إنما) من تعريض بما كان عليه حال المرأة من الجزع وعدم التماسك، وأن السكون بعد فوات المصيبة لا يكون صبرا، بل سلوانا، والصبر الحقيقي يكون عند أول الصدمة ولحظة وقوع البلاء، ولذا سماها صدمة، على سبيل الاستعارة؛ تعظيما لشدة وقوعها على النفس، وعنف قوتها وشدتها وفجأتها، وإنما أمرها الرسول (ﷺ) بالتقوى دون الاقتصار على الصبر فقط؛ لأنها تعمق المراقبة لله، وتغرس مبادئ الأخلاق والعقائد الإيمانية، لذا كانت سلاح المؤمن عند الشدائد، تساعده على كظم الغيظ، وجهاد النفس، وتربيه على الصبر على الفاجعات، وتعوده الرضا بدلا من الثورة والتمرد، والتحمل بدلا من التهور.. فراعى (ﷺ) طبيعة المرأة – عموما، وهذه خصوصا – وحثها على التقوى والصبر، بخلاف ابنته زينب عندما ماتت ابنتها فقد حثها على الصبر والاحتساب، دون التقوى، فيما رواه أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ (رضي الله عنه) قَالَ: "أَرْسَلَتِ ابْنَةُ النَّبِيِّ (ﷺ) إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَائْتِنَا. فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ وَيَقُولُ: "إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى

(١) أخرجه البخاري في كتاب (الجنائز)، باب (زيارة القبور)، رقم (١٢٨٣).
(٢) فتح الباري: ١٤٩/٣، وينظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ٥٢٨/٦.
(٣) فتح الباري: ١٤٩/٣.

وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ"، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِجَالٌ... "(١)، فاقتصر على النصيحة بالصبر والاحتساب دون التقوى؛ لأنه لم يقع منها ما يدل على جزعها وتسخطها.

ومن أدق ما يدل على رعايته (ﷺ) لهذه العاطفة الرقيقة التي سرعان ما تستسلم للبكاء والجزع، ما رواه جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: أُصِيبَ أَبِي يَوْمَ أُحُدٍ. فَجَعَلْتُ أَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ وَأَبْكِي. وَجَعَلُوا يَنْهَوْنَنِي. وَرَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) لَا يَنْهَانِي. قَالَ وَجَعَلَتْ فَاطِمَةُ، بِنْتُ عَمْرٍو تَبْكِيهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): "تَبْكِيهِ، أَوْ لَا تَبْكِيهِ، مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا، حَتَّى رفعتموه "(٢).

فكل من الرجل والمرأة هنا يبكي، غير أن الرسول (ﷺ) لم ينه جابرا عن البكاء، في حين توجه إلى عمته يواسيها ويستحثها على عدم البكاء، وفي تنوع الخطاب النبوي مراعاة لطبيعة الطرفين، فالرجل وإن بكي إلا أنه يملك نفسه، فلا يخشى عليه النواح والجزع والتسخط والوقوع في المحذور، بخلاف طبيعة المرأة التي ربما جرتها إلى ما هو أبعد من مجرد البكاء، فعجل بتعزيتها والتسرية عنها والتخفيف من آلامها، ولذا لم يكتف الرسول (ﷺ) بالإجابة على أم حارثة في وفاة ولدها، وقد نزف قلبها وأنهكه ألم الفقد، وإنما زاد على الإجابة؛ مراعاة لنفسها المتألمة، وقلبها المنفطر على ابنها المقتول في غزوة بدر، فيما رواه أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ (ﷺ)، أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ، أَتَتِ النَّبِيَّ (ﷺ) فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَلَا تُخْبِرُنِي عَنْ حَارِثَةَ؟ وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب(الجنائز)، باب(البكاء على الميت)، رقم(٩٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب (فضائل الصحابة ﷺ)، باب (من فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر (ﷺ)، رقم (٩٢٦).

بَدْرٍ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ الْبُكَاءَ. قَالَ: "يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى "[1].

راعى الرسول (ﷺ) طبيعة المرأة ورقة قلبها، وعاطفتها الملتهبة، ومصابها الجلل في ولدها، فبادر إلى تسليتها وإيناس قلبها حتى لا يبادرها الجزع ويتسرب إليها السخط، فلم يقتصر على الإجابة بأنه في الجنة، وإنما ناداها بلفظ الأمومة مضافا إلى حارثة (فلذة كبدها) تلذذا وإيناسا، ووصف الجنان بالكثرة، وجعله في أعلاها درجة، كل هذا مراعاة لحالها، ولعاطفتها النازفة، وقلبها المنفطر.

ولطبيعة التكوين الجسدي للرجل، ولما يتسم به من القوة البدنية، وشدة التحمل، والجرأة والإقدام في حين أن المرأة لا تملك بنية صالحة للقتال، فضلا عن طبيعتها التي تميل إلى الانقياد والتبعية والرقة والنعومة، فكانت أرهف حسا، وأشد حياء، وأقل شجاعة، ولهذا الاختلاف في طبيعة الجنسين تنوع الخطاب النبوي، فأوجب جهاد الكفار وقتالهم على الرجال وخصهم به، مراعاة لطبيعتهم البدنية التي تتحمل صعوبات الحروب، وشدة بأسها، والكر والفر، في حين لم يخاطب به النساء إلا إذا تعين عليهن، وشرط الذكورة؛ لعدم مناسبة بنيتهن للقتال، واستيلاء الخور والجبن عليهن، كما أنه لا يؤمن عليهن كشف العورة، أو ظفر العدو بهن، فيستحل منهن ما حرم الله، وربما يكون ذلك سببا لجرأة المشركين على المسلمين، ويستدلون به على ضعف المسلمين، لحاجتهم إلى الاستعانة بالنساء على قتالهم[2]، إلا امرأة طاعنة في السن تسقي الماء وتداوي الجرحى، لقول الرُبَيِّع بِنْتِ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ: " كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) نَسْقِي الْقَوْمَ وَنَخْدُمُهُمْ وَنَرُدُّ الْقَتْلَى وَالْجَرْحَى إِلَى الْمَدِينَ "[3]، ولذا راعى الرسول (ﷺ) حال

(١) أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد والسير)، باب(من أتاه سهم غرب فقتله)، (٢٨٠٩).

(٢) ينظر: المغني لابن قدامة المقدسي: ١٣/٣٥، د. عبد اللَّه بن عبد المحسن التركي، ود. عبد الفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب (الرياض – السعودية)، ط: الثالثة١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

(٣) صحيح البخاري، كتاب(الطب)، باب(هل يداوي الرجل المرأة والمرأة الرجل)، رقم(٥٦٧٩).

النساء وطبيعتهم، فجعل جهادهن الحج والعمرة، وذلك في قوله (ﷺ) حين سألته عَائِشَةَ(رضي الله عنها)قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ؟ قَالَ: "نَعَمْ عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ"(١)، وفي رواية: ": لَكِنَّ أَحْسَنَ الْجِهَادِ وَأَجْمَلَهُ الْحَجُّ، حَجٌّ مَبْرُورٌ "فَقَالَتْ عَائِشَةُ": فَلَا أَدَعُ الْحَجَّ بَعْدَ إِذْ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) "(٢).

فنظرا لفضل الجهاد في تحقيق هيبة الأمة واستقرارها، وعزها وكرامتها، واعتلائه أعلى درجات الإيمان، فقد ألحت في طلبه النساء إلا أن الرسول (ﷺ) دلهن على أفضل الجهاد الذي يتناسب مع قدراتهن وطبيعتهن، وجعل جهادهن الحج والعمرة؛ مراعاة لضعفهن وعدم قدرتهن على جهاد الأعداء، لما يتطلبه من قوة البدن وتحمل ويلات الحروب ومشقاتها التي لا تطيقها النساء، فالحج جهاد لا شوكة فيه، يطيقه الرجل والمرأة، ويطيقه الكبير والصغير، والضعيف والعاجز عن جهاد الأعداء.

كما كثر خطاب النبي (ﷺ) للنساء بالتصدق على الرغم من أنهن لا يملكن ما يملكه الكثير من الرجال، فوصايا النبي (ﷺ)وأوامره ونواهيه تشمل الرجل والمرأة، غيرأن هناك أحكاما ووصايا لا خلاف في اختصاصها بالرجال، كما أن هناك وصايا لا خلاف في اختصاصها بالنساء دون الرجال... فكان رسول الله (ﷺ) في بعض الأحيان يوجه خطابا خاصا بالنساء يحثهن على التصدق والإنفاق على الرغم من أن نفقتها على من يعولها، بنتا أوأختا أو أما أو زوجة، فضلا عن أنها لا تملك ما يملكه كثير من الرجال فكان في تخصيصها بالخطاب مرات عديدة بالإنفاق مراعاة لما عليه طبيعتها من كثرة الخطايا بإكثار اللعن وكفران العشير، فهو يقصد حالات خاصة لنساء خاصة، هي التي

(١) أخرجه البخاري في كتاب(العمرة)، باب(وجوب العمرة وفضلها).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (الحج)، باب (حج النساء)، رقم(١٨٦١).

جعلت منهن أكثر أهل النار، بسبب كفران العشير، ولو أحسن العشير إليها الدهر كله، ثم رأت منه شيئا لا يعجبها كفرت نعمة الزوج، واستقلت ما كان منه[1].

ومن ذلك ما رواه أبو أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فِي أَضْحًى، أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى، فَصَلَّى ثُمَّ انْصَرَفَ، فَقَامَ، فَوَعَظَ النَّاسَ وَأَمَرَهُمْ بِالصَّدَقَةِ، قَالَ: " أَيُّهَا النَّاسُ، تَصَدَّقُوا "، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ "، فَقُلْنَ: وَلِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ، يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ"[2].

كما خص الخطاب النبوي المرأة بالتصدق على زوجها وولدها من مالها، إذا افتقروا إليه، محفزا لها على ذلك، كما في حديث زينب زوج عبد الله بن مسعود، حين سألت النبي (ﷺ) أيجزء عني أن أنفق على زوجي وأيتام لي في حجري ؟ فأجابها بقوله: " لها أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة "[3] .. بخلاف صدقة الرجل على زوجته، فلم يلح عليها الخطاب النبوي كثيرا؛ لكونها من البدهيات، حيث جعل من أسباب قوامة الرجل على المرأة الإنفاق عليها.

كما رغبها الخطاب النبوي في التصدق والإنفاق بكل وجوهه، ولو من مال زوجها، بقوله . فيما روته عَائِشَةُ (ﷺ) قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): " إِذَا أَنْفَقَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ طَعَامِ بَيْتِهَا غَيْرَ مُفْسِدَةٍ، كَانَ لَهَا أَجْرُهَا بِمَا أَنْفَقَتْ. وَلِزَوْجِهَا أَجْرُهُ بِمَا كَسَبَ. وَلِلْخَازِنِ مِثْلُ ذَلِكَ. لَا يَنْقُصُ بَعْضُهُمْ أَجْرَ بَعْضٍ شَيْئًا"[4].

---

(١) ينظر: عمدة القاري: ٢٠٢/١، ٢٠٣.

(٢)أخرجه البخاري في كتاب (الحيض)، باب (ترك الحائض الصوم)،رقم(٢٩٨) .

(٣)أخرجه البخاري في كتاب (الزكاة)،باب(الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر)،رقم(١٣٩٧).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب(الزكاة)، باب(الخازن الأمين، والمرأة إذا أنفقت من بيت زوجها غير مفسدة)، رقم(١٠٢٤).

ولعل كثرة خطابات النبي (ﷺ)الموجهة للمرأة بالإنفاق، وتوجيهها إليه، وحثها على التصرف بكافة الوسائل وتخصيصها بذلك يعود إلى انهماكها في تربية أولادها، والقيام على حاجة زوجها وبيتها، فوَجَّهها إلى هذه العبادة الخفيفة، التى لا تستدعي وقتا وجهدا، كسائر العبادات.. وقد يكون السر وراء كثرة الخطاب النبوي للمرأة، وتخصيصها بكثرة الترغيب في الإنفاق والصدقة مرده إلى" غلبة الْبُخْل عَلَيْهِنَّ، وَقلة معرفتهن بِثَوَاب الصَّدَقَة وَمَا يَتَرَتَّب عَلَيْهَا من الْحسن وَالْفضل فِي الدُّنْيَا قبل يَوْم الْآخِرَة"(١).

ولهذا كله كان تخصيص الخطاب النبوي للمرأة بالإنفاق والإكثار من الصدقة على الرغم من دخولها في الخطاب العام للرجل بالإنفاق والتصدق، مراعاة لطبيعتها التي أكدنا عليها فيما سبق.

ومن تنوع الخطاب النبوي تصريحا وتلميحا بتنوع جنس المخاطب ما روي عن السيدة عَائِشَةَ (ﷺ) أنها قَالَتْ:" سَأَلَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ (ﷺ) كَيْفَ تَغْتَسِلُ مِنْ حَيْضَتِهَا ؟ قَالَ :فَذَكَرَتْ أَنَّهُ عَلَّمَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مِنْ مِسْكٍ فَتَطَهَّرُ بِهَا، قَالَتْ :كَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا ؟ قَالَ :تَطَهَّرِي بِهَا، سُبْحَانَ اللهِ، وَاسْتَتَرَ، وَأَشَارَ لَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ بِيَدِهِ عَلَى وَجْهِهِ،قَالَ :قَالَتْ عَائِشَةُ:وَاجْتَذَبْتُهَا إِلَيَّ،وَعَرَفْتُ مَا أَرَادَ النَّبِيُّ (ﷺ) ، فَقُلْتُ :تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ "(٢).

وعن عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب قال:أَرْسَلْنَا الْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ(ﷺ) . فَسَأَلَهُ عَنِ الْمَذْيِ يَخْرُجُ مِنَ الإِنْسَانِ. كَيْفَ يَفْعَلُ بِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ): "توضأ وانضح فرجك" (٣) .

---

(١) عمدة القاري: ٢٧٢/٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب(الحيض) ،(دلك المرأة نفسها إذا تطهرت من الحيض ، وكيف تغتسل...)، رقم(٣٠٨).

(٣) صحيح مسلم ،كتاب (الحيض)،باب(المذي)،رقم(٣٠٣).

فالحديث عن الحيض والمذي يستدعي إيضاحا وتفصيلا منه (ﷺ)لكيفية التطهير والغسل ، غير أنه(ﷺ)راعى حال المخاطب في الحالين ، حيث كنى للمرأة بتدليك فرجها بالقطنة ، دون التصريح بذلك رعاية لطبيعة الحياء التي تلازم الأنثى ، وتلازمه(ﷺ)، فلم يصرح لها أن تدلك فرجها بالقطنة ، وإنما عرضه من وراء ستار رقيق شفاف؛ حتى لا يخدش حياها ، وأشار إلى عائشة لتتولى مهمة إفهام المرأة لاتحاد جنسهما، وفي المقابل صرح الرسول (ﷺ) بلفظ الفرج في الحديث الآخر؛لكون المخاطب ذكرا، فكان التصريح والتلميح في الموقفين مناسبا لطبيعة المخاطب وجنسه.

وقد يتباين الخطاب النبوي مع اتحاد الجنس أو النوع الواحد من البشر، ويكون هذا التباين مرده إلى التباين والاختلاف فيما بين النوع الواحد (ذكر أم أنثى)، كما في خطاب النبي (ﷺ) لزوجتيه: عائشة وأم سلمة عندما حاضت كلتاهما، فالسيدة عَائِشَةُ، تقول: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ (ﷺ) لَا نَذْكُرُ إِلَّا الْحَجَّ، فَلَمَّا جِئْنَا سَرِفَ طَمِثْتُ، فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ (ﷺ) وَأَنَا أَبْكِي، "مَا يُبْكِيكِ؟ "قُلْتُ: لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنِّي لَمْ أَحُجَّ الْعَامَ، قَالَ: "لَعَلَّكِ نُفِسْتِ؟ "قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: "فَإِنَّ ذَلِكِ شَيْءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ، فَافْعَلِي مَا يَفْعَلُ الْحَاجُّ، غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي "[1].

وتقول أم سلمة (ﷺ): بينما أنا مضطجعة مع رسول الله (ﷺ) في الخميلة، إذ حضت فانسللت فأخذت ثياب حيضتي فقال لي رسول الله (ﷺ): أنفست؟ قلت: نعم، فدعاني فاضجعت معه في الخميلة" [2].

فعلى الرغم من أن التعبير بالحيض هو الأولى والأشهر في التعبير عما حدث للسيدة عائشة وأم سلمة (ﷺ)، إلا أن رسول الله (ﷺ) استعاض عن هذه اللفظة بقوله: (أنفست)؛ مراعاة لما عليه حالهما من اضطرابات نفسية وجسدية، يستدعيان خطابا

(١)صحيح مسلم،كتاب(الحج)،باب(إحرام النفساء واستحباب اغتسالها للإحرام...)،ح(١٢١١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب(الحيض)،باب(الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد)، رقم(٢٩٦).

رقيقا يعبر عن معاني اللطف والرعاية والألفة، فكان هذا اللفظ الهادي الرسيس (أنفست) أو(لعلك نفست)، بما يفيض به من معاني اللطف والرقة واللين، وبما فيه من همس وحنان تطييبا لخاطرهما، غير أن البيان النبوي اختلف أسلوبه في خطاب كلا الزوجتين تبعا لحال كل منهما، فالزوجة الشابة الباكية، وهي السيدة عائشة (ﷺ) ناسبها التسلية والتسرية بقوله: "هذا أمر كتبه الله على بنات آدم"، فكون الحيض أمر قد فرض من قبل الله تعالى، فضلا عن عدم خصوصيته بها وشموليته جميع النساء من لدن آدم (عليه السلام) إلى اليوم من شأنه أن يسليها ويخفف من وطأة مصابها.. واختيار لفظ(البنات) دون (النساء) فيه إيناس لنفس السيدة عائشة، وتعزية لها أي تعزية، فضلا عما فيه من مناسبة لحالها، وهي الشابة الصغيرة قريبة العهد بالحيض، ففيه تسرية عن نفسها بأن البنت الصغيرة تشاركها في هذا الأمر، فكان أدعى للصبر والرضا.

وأما في جانب السيدة أم سلمة(ﷺ) فقد اكتفى الرسول (ﷺ) بأن دعاها للاضطجاع معه في الخميلة دون أن يقول لها ما قاله لعائشة (ﷺ) من أن الأمر قد كتبه الله على بنات آدم، وفي هذا التباين في الخطاب مناسبة لحال كل من الزوجين؛ لما بينهما من فارق في السن، فعائشة (ﷺ)صغيرة السن، حديثة عهد بأمر الحيض وأذاه، ولذا حزنت وبكت،، بخلاف السيدة أم سلمة (ﷺ)، فهي أكبر سنا وقد اعتادت هذا الأمر، فلم يصدر عنها ضجر ولا بكاء، ولذا اكتفى (ﷺ) في مواساتها بدعوتها لتضطجع معه في الخميلة، ولذا اختلف الخطاب النبوي لزوجتيه على الرغم من اتحادهما في النوع.

<u>ومن أمثلة تنوع الخطاب النبوي مع اتحاد النوع أيضا ما نراه في قبول النبي (ﷺ)</u> صدقة أبي بكر بكل ماله، في حين لم يسمح لكعب بن مالك أن يتصدق بكل ماله، وذلك فيما رواه عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بن مالك (ﷺ) يقول: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ

مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّه الله وإلى رسوله، فقالَ رسولُ الله(ﷺ): "أمسِكْ بعضَ مالِكَ فهو خيرٌ لكَ"، قلتُ: فإني أُمسِكُ سَهْمي الذي بخيبرَ"[1].

راعى الرسول (ﷺ) حال كعب بن مالك (ﷺ) عندما تاب الله عليه، فلم يسمح له بالتصدق بجميع ماله، وإنما أمره أن يمسك بعضه؛ خشية أن يكون في التصدق بكل ماله مشقة على نفسه، فمنعه من ذلك، في حين" لم ينكر على أبي بكر الصديق (ﷺ) خروجه من ماله أجمع؛ لما عليه من صحة نيته وقوة يقينه ولم يخف عليه الفتنة كما خافها على غيره "[2].

وهنا تنوع الخطاب النبوي وتباين على الرغم من اتحاد نوع المخاطب وجنسه؛ مراعاة لما عليه حال كل منهما.

ومن تنوع الخطاب النبوي مع اتحاد نوع المخاطب مراعاة لمقتضي الحال ، خطابه (ﷺ) لعُمر بن سلمة (ﷺ)، وقد كان غلاما في حجره (ﷺ)، وكانت يده تطيش في الصحفة، فكان توجيه الرسول (ﷺ) له بقوله: "يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك" [3].

وعن ابْنَ عَبَّاس (ﷺ)، قَالَ :كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ (ﷺ)، فَقَالَ لِي: " يا غُلامُ، إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، فَقَدْ رُفِعَتِ الْأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الْكُتُبُ، فَلَوْ جَاءَتِ الْأُمَّةُ تَنْفَعُونَكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكَ، لَمَا اسْتَطَاعَتْ، وَلَوْ أَرَادَتْ أَنْ تَضُرَّكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ لَكَ، مَا اسْتَطَاعَتْ "[4].

من يتأمل السياق في الحالين، يتضح له أن مقتضي الحال هو الذي اتجه بالقول إيجازا ولمحا وإماضة، كما اتجه إليه بسطا وإطنابا، وإفاضة، ففي السياق الأول ناسب

(١) صحيح البخاري، كتاب (الوصايا)، باب(إذا تصدق أو أوقف بعض ماله أو بعض رقيقه أو دوابه فهو...)، رقم(٢٦٠٦).

(٢) معالم السنن: ٢/ ٧٨ بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب (الأطعمة)،باب(التسمية علي الطعام والأكل باليمين)، رقم(٥٣٧٧).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده،رقم(٢٧٦٣).

الإيجاز حال عمر؛ لأنه كان غلاما صغيرا، لم يميز بعد، بدليل أن يده كانت تطيش في الصحفة، ولا يفطن لكثرة التعاليم، وهم كذلك كانوا في حال تناول الطعام، وهذا يقتضي خطابا موجزا، يفهمه الطفل ويعيه جيدا، لينفذه في مثل هذا الموقف، بعيدا عن التعاليم الكثيرة التي قد لا يفهمها ولا يستدعيها المقام.

أما الإطناب في خطاب عبد الله بن عباس، فلأنه كان فتى يافعا ذا فطنة وملكة واعية، كيف لا وقد دعا له الرسول (ﷺ) بالعلم والحكمة والتأويل[1]، ولذا ناسب الإطناب حاله؛ لأن المقام مقام تلقين وتعليم لهذا الغلام اليافع، بامور عامة وهو راكب خلف النبي (ﷺ)، وهناك فرصة للتعليم والإنصات الواعي، وهو ما نادي علي الإطناب، واستدعاه،، بخلافه في خطاب عمر بن سلمة، الذي ارتبط بحادثة خاصة، استدعت خطابا خاصا موجزا يعيه الطفل ويفهمه، فاقتصر علي المطلوب وركز عليه دون إطالة.. فالرسول (ﷺ) راعي في الطفلين طبيعة كل منهما، وسنه، ودرجة إدراكه وفهمه، وطبيعة المقام.. وهكذا نتبين أن "المقام، والموقف، وحال المخاطبين هي التي تحدد للبليغ طريقة تناول الموضوع بسطا، أو إيجازا، أما الصياغة فهي بمنأي عن أن توصف بإيجاز، أو إطناب، إذ إن الكلمة لابد أن يكون لها دور تؤديه، وكل حذف فيها لابد أن يدعو إليه داع يقتضيه التعبير بدقة"[2].

(١) صحيح البخاري، كتاب(العلم)، باب(قول النبي (ﷺ)اللهم علمه الكتاب)، وينظر: التوشيح شرح الجامع الصحيح، للسيوطي: ٢٥٣/١، تح: رضوان جامع رضوان، مكتبة الرشد – الرياض، ط: الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

(٢) رؤية جديدة للإيجاز والإطناب، د. عبد الغني محمد بركة: ٢٥١، دار الطباعة المحمدية – القاهرة ١٩٨٣م.

المطلب الثاني:-

تنوع الخطاب النبوي في الوصية بتنوع حال المخاطب.

كثرت وصايا النبي (ﷺ) لأصحابه، ومع كثرة هذه الوصايا يلاحظ عليها التنوع والاختلاف من شخص لآخر؛ لأنه (ﷺ) كان يوصي كل واحد منهم بما يناسب حاله، وبما يراه أحوج إليه، فليس كل ما يصلح لشخص يصلح لآخر، وليس كل ما يصلح لفئة أو جنس يصلح لغيرها، فكان رسول الله (ﷺ) في وصاياه لأصحابه كالطبيب مع المريض، يصف لكل منهم ما ينصلح به حاله من دواء؛ ولذا أوصي كل واحد بغير ما أوصي به الآخر؛ نظرا لاختلاف أحوال الذين سألوه الوصية، لأنه من الحكمة أن يوصي الشخص بما يفتقده من صفات، حتي تتكامل شخصيته وتتزن... ومن يتأمل تباين الوصايا النبوية التي كان يسديها النبي لأصحابه يدرك أنه كان يخاطب كل واحد بما يلائم حاله وقدراته، فأوصي رجلا بترك الغضب، وأوصي آخر بالاستقامة، كما أوصي المسافر بما يلائم حاله، والأمير برعيته... وهكذا.

فعن أبي الدرداء (رضي الله عنه) قال: "أوصاني حبيبي (ﷺ) بثلاث لن أدعهن ما عشت: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحي، وبأن لا أنام حتي أوتر" [(١)].

يلاحظ هنا أنه (ﷺ) قد "اقتصر في الوصية علي الثلاثة المذكورة؛ لأن الصلاة والصيام أشرف العبادات البدنية، ولم يكن المذكورون من أصحاب الأموال" [(٢)].

وأوصي (ﷺ) رجلا بعدم الغضب، فقد روى أبو هريرة (رضي الله عنه) أن رجلا قال للنبي (ﷺ): أوصني، قال: "لا تَغْضَبْ وَلَكَ الْجَنَّةُ" [(٣)].

أوصاه الرسول (ﷺ) بعدم الغضب، وكرر السائل طلب الوصية؛ ليحصل علي الأفضل والأكثر نفعا، وكرر الرسول (ﷺ) له الإجابة بعينها، ولم يزده علي الوصية بعدم

---

(١) صحيح مسلم، كتاب(صلاة المسافرين وقصرها)، باب(صلاة الضحي أقلها ركعتين)، رقم (٧٢٢).

(٢) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، الزرقاني: ٣٣/١١، دار الكتب العلمية، ط: الأولى١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

(٣) جمع الجوامع(الجامع الكبير)، السيوطي: ٢٧٣/١١،.

الغضب، ففي رواية البخاري، عن أبي هريرة أن رجلا قال للنبي (ﷺ) أوصني بشيئ، ولا تكثر علي لعلي أعيه، قال: "لا تغضب، فردد ذلك مرارا كل ذلك يقول لا تغضب" (١)، وكأنه (ﷺ) يعلم من حال السائل أنه سريع الغضب، فجاءت وصيته بعدم الغضب مراعية لحال الرجل، يقول صاحب عمدة القاري: "إنما قال (ﷺ) (لا تغضب)؛ لأنه (ﷺ) كان مكاشفا بأوضاع الخلق، فيأمرهم بما هو الأولي بهم، ولعل الرجل كان غضوبا فوصاه بتركه" (٢)، ولهذا اقتصر في وصيته له علي ترك الغضب، ولم يزد عليه.

كما أوصي(ﷺ)رجلا أراد السفر بالتقوي والتكبيرعلي كل مكانٍ عالٍ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه)، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ فَأَوْصِنِي، قَالَ: "عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ"، فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ": اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الْأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ" (٣).

أوصى المسافر بالتكبير إذا صعد شَرَفا، وهو مناسب لحال الرجل حينئذ، وعلة ذلك أن الرجل في أسفاره إذا صعد مكانا عاليا ربما تعاظم في نفسه؛ لأن العالي علي الشئ قد يتعاظم في نفسه، فيري أنه كبير، وربما شعر بالعظمة والكبرياء، فكان من المناسب أن يكبر الله كلما صعد مرتفعا، ليستشعر معية الله وعظمته وإحاطته وحفظه، ويستشعر التواضع متفكرا في سعة الدنيا وترامي أطرافها.

كما أوصاه بالتقوي؛ لأن المسافر يكون بعيدا عن كل من يعرفه ومن علي صلة به أنذاك، فكان أشبه له بالخلوة، وكان الشيطان إليه أقرب؛ ولذا كانت الوصية بالتقوي إشارة للمسافر أن يعلم أن الله لا يخفي عليه شيئ في الأرض ولا في السماء، وهذا يستوجب مراقبته سبحانه وتعالى، فيبتعد عن مواطن الشبهات وإغراءات غير المسلمين في بلدانهم، فكان في وصيته (ﷺ) المسافر بالتقوي مراعاة لحاله في السفر، ودقة بالغة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (الأدب)، باب(الحذر من الغضب)، رقم(٥٧٦٥).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العينى: ١٣/ ١٦٤، دار إحياء التراث العربي - بيروت(دون).

(٣) أخرجه الترمذي في (أبواب الدعوات)، باب (٤٦)، رقم (٣٤٤٥).

منـه (ﷺ)، فكل مسلم سفير لدينـه وبلده، ولـذا كـان سؤال الرسـول (ﷺ) ربـه التقـوي فـي السفر، فعن ابْنَ عُمَرَ (رضي الله عنه)؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ. اللَّهُمَّ! إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى. وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى... "[1].

لأن التقوى فـي السفر لهـا قدرها، فالمسـافر يغير مكانـه وحالـه، وربمـا كـان سفره إلـى بـلاد الغربـة -كمـا أشرنـا - فـلا يخشـى مـا يخشـى منـه لـو كـان فـي بلده وموطنـه، لـذا كانـت ملازمـة التقوى فـي السفر مهمـة للغايـة ودالـة علـي حكمتـه (ﷺ)، فضـلا عمـا فـي ملازمـة التقـوي للمسـافر من تفريج الكروب، وتسـهيل الأمـور، وإيجـاد المخـارج والحلـول، وهـي سبب لفتح بـاب الـرزق وخير معين علـي قضـاء حوائجـه، والنجـاة من الهـلاك، كمـا يتنزل به لطف الله.

ولمـا كـان حـال معـاذ بـن جبـل حـال انتقـال وحـروب وأسـفار مـن مكـان إلـى مكـان، أرشده النبي (ﷺ) إلى لزوم التقوى علي كل حال، فعن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوْصِنِي، فَقَالَ: " اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ "[2].

فليست التقوى فـي بلد دون بلد، أو حال دون حال، وكم من النـاس من لا تتعدى تقواه حدود بلـده فـإذا تجاوزهـا تجـاوز معهـا حـدود التقـوى!!.. كمـا جـاءت وصيتـه لمعـاذ بحسن الخلـق مراعـاة لحالـه، ولمـا يجـب أن يكـون عليـه الداعيـة إلـى دين الله، فكـان مـن خواص الذين بعثهم الرسول (ﷺ) لنشر الإسلام والدعوة إليـه، ومـن لوازمهـا حسن الخلـق، ولين الجانب، والموعظة بالحسنى.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب(الحج)، باب(ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره)، رقم(١٣٤٢).

(٢) أخرجه الدارمي في مسنده ، كتاب(الرقاق)، باب(حسن الخلق)، رقم(٢٨٣٣).

كما أوصي (ﷺ) أعرابيا بعدم الإشراك بالله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم، فيما رواه أبو هريرة(ﷺ) أن أعرابيًّا جاء إلى رسول الله(ﷺ)، فقال: يا رسول الله، دُلّني على عمل إذا عملتُه دخلتُ الجنةَ. قال: " تعبد الله لا تُشْرِكَ به شيئًا، وتقيمَ الصلاةَ المكتوبةَ، وتؤدِّي الزكاةَ المفروضةَ، وتصومَ رمضانَ"، قال: والذي نفسي بيده لا أزيدُ على هذا شيئًا ولا أنقصُ منه. فلمّا ولّى قال النبي (ﷺ): "مَنْ سرَّهُ أن ينظرَ إلى رجلٍ منْ أهلِ الجنةِ، فلينظرْ إلى هذا "[1].

وكما في وصيته (ﷺ) لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن، وفي ذلك يقول عبد الله بْنِ عَبَّاسٍ: بَعَثَ الرسول(ﷺ) مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: "إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قد فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ... "[2].

ومن ذلك ما رواه أبو أيوب (ﷺ) أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَرَضَ لِلنَّبِيِّ (ﷺ) وَهُوَ فِي مَسِيرٍ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ، أَوْ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْ يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ قَالَ: " تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ "[3].

ومنه ما رواه طلحة بن عبيد الله، قال: جاء رجل إلى رسول الله(ﷺ)، من أهل نجد ثائر الرأس، يُسمَع دوي صوته ولا يُفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله، فإذا هو يسأل عن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (الزكاة)، باب (وجوب الزكاة)، رقم (١٣٣٣).
(٢)صحيح البخاري كتاب(الزكاة)،باب(أخذ الصدقة من الأغنياء، وترد في الفقراء)،رقم(١٤٢٥).
(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: ٣١، باب(صلة الرحم)، رقم (٤٩). تح: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكتبتها – القاهرة، ط: الثانية، ١٣٧٩م.

الإسلام، فقال رسول الله (ﷺ) "خمس صلوات في اليوم والليلة"، فقال: هل على غيرهن؟ قال: "لا، إلا أن تَطَّوع"، وصيام شهر رمضان" قال: هل على غيره؟ قال: "لا، إلا أن تَطَّوع"، وذكر له رسول الله (ﷺ) الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: "لا، إلا أن تطوع" فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقُصُ منه، فقال رسول الله (ﷺ) "أفلح إن صدق" [(١)].

وهنا تتضح قدرة النبي (ﷺ) ودقته في مخاطبة الناس، ورعاية حالهم، حيث يمثل هذا الحديث الغاية في مراعاته (ﷺ) حال المبتدئين، والمحافظة علي قلوبهم، فكان لا يُعلمهم ما يُعلم المنتهين، فراعي حال الأعرابي، وحال من يدعوهم معاذ بن جبل(رضي الله عنه)، وأنهم حديثو عهد بالإسلام، فلم يرد أن يشق عليهم، فاكتفي بالفروض والواجبات، دون السنن والمندوبات، قال ابن حجر: "لعلّ أصحاب هذه القصص كانوا حديثي عهد بالإسلام فاكتفى منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحالة، لئلا يثقل عليهم فيملوا، فإذا انشرحت صدورهم للفهم عنه، والحرص على ثواب المندوبات،سهلت عليهم[(٢)].

ويلاحظ أنه (ﷺ) أوصى بالشهادة، والصلاة، والزكاة، وترك الحج؛ لأن القصة حدثت في الحج[(٣)]، أو لأن الحج لم يكن قد فرض في تلك الأثناء فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ أَنَّ الْحَجَّ كَانَ وَاجِبًا مِنْ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ.. وَأَمَّا ذِكْرُ الْحَجِّ فِي حَدِيثِ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ[(٤)]، فإن الصَّوَابَ أَنَّهُ إِنَّمَا وَفَدَ سَنَةَ تِسْعٍ فَيَكُونُ الْحَجُّ إِنَّمَا فُرِضَ سَنَةَ تِسْعٍ، فضلا عن أن وجوب الحج على التراخي، إذ لو كان على الفور لما أخره (ﷺ)بعد فرضه إلى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب(الصوم)، باب(وجوب صوم رمضان)، رقم(١٧٩٢).

(٢) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم، تح: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، (دمشق . سوريا) ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٣) ينظر: فتح الباري: ٣/٢٦٤.

(٤) ينظر: إِكمَالُ المُعْلِمِ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ، لِلقَاضِي عِيَاض: ١/٢١٥، تح: د. يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء . مصر، ط: أولى١٤١٩هـ - ١٩٩٨

السنة العاشرة [١]، ولهذا لم يذكره الرسول (ﷺ) ضمن وصاياه السالفة الذكر، مراعاة لمقتضى الحال.

فيكون الرسول (ﷺ) قد ذكر لهؤلاء ما افترض عليهم من أعمال لا ينهض الإسلام إلا بها، دون غيرها من أعمال التطوع؛ "وإنما سكَتَ النبيُّ (ﷺ)لهؤلاء السائلين عن ذِكرِ التطوُّعات، ولم يذكُرهَا لهم...؛ لأنَّ هؤلاءِ – والله أعلم – كانوا حديثي عهدٍ بإسلام؛ فاكتفى منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحال؛ لئلاّ يَثقُلَ ذلك عليهم فيَملُّوا، أو لِئَلاّ يعتقدوا أنَّ تلك السنن والتطوُّعاتِ واجبة، فتركَهُم إلى أن تنشرحَ صدورهم بالفهم عنه، والحرصِ على تحصيلِ ثوابِ تلك المندوبات؛ فتسهل عليهم"[٢].

كما يلاحظ علي خطاب النبي (ﷺ) في هذه البيعة وفي الأحاديث السابقة أنه (ﷺ) وجه إلى التوحيد والصلاة والزكاة والصيام، ولم يذكر الجهاد؛ إشارة إلى التدرج في التربية، فهم ما زالوا حديثي عهد بهذا الدين، وليس بينهم من يعلمهم أحكام الجهاد، فضلا عن ضعف شوكة المسلمين أنذلك، فلم يكونوا مستعدين للدخول في صراعات عسكرية، ولم يكتمل بناء الدولة بعد، ولذا اكتفي الرسول (ﷺ) بالجوانب الأساسية.

وفي الوصية بصلة الرحم ما يتناسب وجفاء الأعراب وغلظتهم، "وَخَصَّ هَذِهِ الْخَصْلَةَ مِنْ بَيْنِ خِلَالِ الْخَيْرِ نَظَرًا إِلَى حَالِ السَّائِلِ كَأَنَّهُ كَانَ لَا يَصِلُ رَحِمَهُ فَأَمَرَهُ بِهِ لِأَنَّهُ الْمُهِمُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ وَيُؤْخَذُ مِنْهُ تَخْصِيصُ بَعْضِ الْأَعْمَالِ بِالْحَضِّ عَلَيْهَا بِحَسَبِ حَالِ الْمُخَاطَبِ وَافْتِقَارِهِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِمَّا سِوَاهَا إِمَّا لِمَشَقَّتِهَا عَلَيْهِ وَإِمَّا لِتَسْهِيلِهِ فِي أَمْرِهَا" [٣].

(١) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي: ١٣٢/٥، دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، ط: خامسة، ١٤٤١هـ – ٢٠١٩م.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي: ١٦٦/١-١٦٧، تح: يوسف علي بديوي وآخرون، دار ابن كثير(دمشق . بيروت)، ط: أولى ١٤١٧هـ .١٩٩٦م.

(٣) فتح الباري: ٣/ ٢٦٥.

كما أوصى الرسول (ﷺ)رجلا بمداومة ذكر الله حين قال له: إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ "لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ" (١).

هذا الرجل يشتكي إلى الرسول (ﷺ) كثرة أبواب الطاعات كثرة فائقة، وتنوعها، سواء منها ما يتصل باللسان، وما يتصل بالجوارح، وما يتصل بالمال، وما يتصل بأعمال القلوب، فلأن الشريعة واسعة، ولأنه (ﷺ) أعلم هذه الأمة بما جاء عن ربه، وهو أعلم بتفاضل هذه الأعمال أخبر الرجل بما ينفعه، وأوصاه بعمل يسير مُسْتَجلِب لثواب غزير ليداوم عليه، ويعتصم به، وفي ذلك مراعاة لحال الرجل الذي تكاثفت حوله شرائع الإسلام، وتزاحمت عليه، فلم يوصه بكثرة صيام التطوع، أو كثرة الصدقة، وإنما وجهه إلى مداومة الذكر الذي كني عنه بقوله: "لا يزال لسانك رطبا بذكر الله " مناسبة لضعف الرجل، وخوفه من كثرة الشرائع، وعدم قدرته علي مجابهتها.، وبذلك يبقى إيمانه حيا، وتقواه حاضرة، ومراقبته لله قائمة، وقلبه نابض بالإيمان، ولذا كان من صفات المنافقين {وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا } [النساء: ١٤٢]، فقد يذهب زمن كبير من حياة الإنسان في عمل مفضول فيفوته به من المراتب العالية والمنزلة السامية ما يفوت، كما في قول النبي (ﷺ) لأم المؤمنين جويرية حين جلست من بعد الفجر إلى الضحي تردد أذكارا "ما زلتِ علي الحال التي فارقْتُكِ عليها؟ " قالت: نعم، قال النبي (ﷺ): "لقد قلت بعدك أربعَ كلمات ثلاثَ مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته" (٢)، فجاءت الوصية بمداومة الذكرمناسبة لحال الرجل، متناغمة مع شكوته، متلائمة مع قدراته.

(١) صحيح الترمذي، كتاب (الدعوات)، باب (ما جاء في فضل الذكر)، رقم(٣٣٧٥).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب(الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار)، باب التسبيح أول النهار وعند النوم)، رقم (٢٧٢٦).

وتأمل وصيته (ﷺ) لوفد عبد قيس حين قدم علي رسول الله (ﷺ)، فعن ابْنَ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) أنه قال: "قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا هَذَا الْحَيَّ مِنْ رَبِيعَةَ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كُفَّارُ مُضَرَ، فَلَسْنَا نَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَأْخُذُ مِنْهُ وَنَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ وَرَاءَنَا، قَالَ: آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، الْإِيمَانِ بِاللهِ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَعَقَدَ بِيَدِهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُؤَدُّوا لِلهِ خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ. وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالْمُزَفَّتِ" [(١)].

والمراد بهذه الأشياء أوعية يجعلون فيها التمر أو الزبيب مع الماء حتى يحلو ثم يشربونه، وقد يتخمر.. وسبب النهي عن هذه الأوعية سرعة تخمر ما وضع بها؛ فنهاهم عن الانتباذ فيها؛ لأنه يسرع إليه الإسكار فيها فيصير حراما نجسا فنهى عنه، لما فيه من إتلاف المال، ولأنه ربما شربه بعد إسكاره من لم يطلع عليه.. وإنما اقتصر في النهي عن الانتباذ في هذه الأوعية، مع وجود ما هو أشد منها حرمة، لكثرة تعاطيهم لها[(٢)]، واستخدامهم لها بكثرة دون ما عداها، فراعى حالهم.

وقد أوصي الرسول (ﷺ) عبادة بن الصامت ورهطا أرادوا الإعلان عن إسلامهم بعدم الإشراك، والسرقة، والزنا، وقتل الأولاد وغيرها، فيما رواه عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ (رضي الله عنه) قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ (ﷺ) فِي مَجْلِسٍ فَقَالَ: بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (فرض الخمس)، باب (أداء الخمس من الدين)، رقم(٣٠٩٥)، والدباء: القرع، واحدها دُبَّاءةٌ، كانوا ينتبذون فيها فتُسرع الشِّدة في الشراب، والحنتم: إناء أو جرة كبيرة تصنع من طين وشعر وتدهن بلون أخضر وتشتد فيها الخمر، وتكون أكثر سكرا، والنقير: أصل النخلة وجذعها ينقر وسطه ثم ينبذ (ينقع) فيه التمر ويلقى عليه الماء، ليصير نبيذا وشرابا مسكرا، والمزفت: الوعاء الماء المصلي بالقار وهو الزفت. ينظر: لسان العرب: دبا . حنم . نقر- زفت، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، للزرقاني: ١٣٦/٥.

(٢) ينظر: فتح الباري: ١٣٤/١.

وَلَا تَزْنُوا. وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ كُلَّهَا. فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ"(١).

كان عبادة بن الصامت أحد النقباء الإثني عشر الذين بايعوا رسول الله (ﷺ) بيعة العقبة الأولى، وعاهدهم الرسول وأوصاهم بالتوحيد الخالص من الشرك، وعدم السرقة والزنا وقتل الأولاد وبطاعته (ﷺ)، وإنما نص الرسول (ﷺ) علي هذه المنهيات دون غيرها؛ لعظم شأنها، وكثرة شيوعها وانتشارها في مجتمع المخاطبين، فشمل الحديث التخلي عن خصال الجاهلية، وكانت السرقة فيهم شائعة، وفي النساء أكثر من الرجال، ولذا قال تعالي: {وَلَا يَسْرِقْنَ}(٢) [الممتحنة: ١٢].

كما نهى عن الزنا؛ لبشاعته في الجاهلية، وإن كان مشهورا في بعض النساء كالبغايا أو الإماء، وانتشار صور النكاح المحرم كالاستبضاع، والمتعة، وكانت المرأة تبيح نفسها لعدة رجال فإذا جاءت بولد نظرت أيهما أكبر به شبها فألحقته به، وربما اختارت هي أحسنهم، فألحقت به ابنها وهي تعلم من أبوه، وعموم اللفظ" ولا يأتين ببهتان "يشير إلى هذه الحالة وغيرها، ولعل ابن عباس (رضي الله عنهما) خصصه بذلك المعني لمناسبة واقعة وقتذاك(٣).

(١) صحيح البخاري، كتاب (الحدود)، باب(الحدود كفارة)، رقم (٦٨٠١).

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، للطيب بن عاشور: ٢٨/ ١٦٦، الدار التونسية للنشر – تونس١٩٨٤هـ.

(٣) ينظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم، د. موسى شاهين لاشين: ٥/٤٧٤ . ٤٧٥، دار الشروق، ط: الأولى١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م، ومنهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام المؤلف: د. حمود الرحيلي٢/٧٧٦-٧٧٨، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، (المدينة المنورة . السعودية)، ط: الأولى١٤٢٤هـ .٢٠٠٤م.

كما أوصي (ﷺ) البراء بن عازب إذا أتى مضجعه أن يتوضأ وضوءه للصلاة، ويضجع علي شقه الأيمن، ثم يقول: " اللهم إني وجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، اللهم ءامنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، واجعلهن من آخر كلامك، فإن مت من ليلتك مت علي الفطرة، قال: فرددتهن لأستذكرهن، فقلت: ءامنت برسولك الذي أرسلت، قال: "قل ءامنت بنبيك الذي أرسلت" [(١)].

وفي هذا الدعاء وهذه الوصية مراعاة لحال المخاطب الذي قصد النوم؛ لما في هذه الوصية، وتلك الآداب قبل الموتة الصغرى من استحضار العبر، وتجديد العهد مع الله، من الركون إليه، والاحتماء به، وحسن التوكل عليه، وتفويض الأمور إليه، وتجديد الإيمان بكتابه وخاتم أنبيائه (ﷺ)، فحثُه علي تطهير جسده وأعضائه مناسب لإقدامه علي الموتة الصغرى، فيبيت على طهارة، لئلا يبغته الموت فيكون علي هيئة كاملة، وليكون أصدق لرؤياه، وأبعد عن تلاعب الشيطان به في منامه، وليكون آخرُ عمله . إن مات . الطهارة وذكر الله[(٢)].. فضلا عن أنه مُقْدِم علي عبادة جليلة وهي الدعاء والذكر.

كما أتى توجيهه (ﷺ) بالاضطجاع على الجانب الأيمن مناسبا لحال النوم والتوجه إلى الله، وفي اليمين بركة، وهو أسرع إلى الانتباه، وأن القلب متعلق إلى جهة اليمين، فلا يثقل بالنوم، والنوم علي اليمين يساعد في هضم الطعام؛ حيث يمنع ضغط الكبد علي المعدة، ويساعد على تفريغ محتوياتها[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب(الذكر والدعاء)، باب (ما يقول عند النوم وأخذ المضجع)، رقم (٢٧١٠).

(٢) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ٢٠١/١٧، والإعجاز العلمي في الإسلام (السنة النبوية)، د. محمد كامل عبد الصمد: ٦٧، الدار المصرية اللبنانية، ط: رابعة ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.

(٣) ينظر: فتح الباري: ١١/ ١١٠.

كما يـأتي الختـام بالـذكر مناسـبا كمـال المناسـبة لحـال مـن أقبـل علـي الموتـة الصغرى، ليكون علي صلة دائمة بالله تعالى عند منامه، لتكون خاتمة عمله ذكر الله... لأنه لا يدري ما ينتهي إليه أمره في قيامته الصغرى هذه، أهو إلى سبات عميق أم إلى حياة جديدة مع طلوع فجر جديد، ولذا كان استهلاله هذا الذكر بـ (اللهم) مناسبا تمام المناسبة للمقام؛ لما فيه من إظهار عجز الإنسان أمام جلال الله وعظيم قدرته، وإعلان عن غاية الطاعة، وكمال الانقياد له سبحانه، لتكون الثمرة التي يجنيها المسلم "فإن مت من ليلتك مت علي الفطرة".

وتأمل وصيته (ﷺ)لأبي ذر(ﷺ) بالسمع والطاعة لولي الأمر، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ: أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى الرَّبَذَةِ وَقَدْ أُقِيمَتْ الصَّلَاةُ، فَإِذَا عَبْدٌ يَؤُمُّهُمْ، فَقِيلَ: هَذَا أَبُو ذَرٍّ، فَذَهَبَ يَتَأَخَّرُ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: أَوْصَانِي خَلِيلِي (ﷺ) أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ "[1].

جعل الرسول (ﷺ) الوالي عبدا مع أنه لا يحل مطلقا اختيار العبد ابتداء بالإمارة والولاية؛ لأن الحرية شرط في الوالي والأمير[2].. فضلا عن كونه مقطوع الأطراف، كما جعله في رواية أخري (عبدا حبشيا) موغلا في جزئيات (الحبشي) بقوله: " كأن رأسه زبيبة "[3]، والذي تنكمش منه النفس، ليقرر المثل العليا في الإسلام، ويؤصل بجعل الخلافة للكفء لا لاعتبارات دنيوية وشكلية من ناحية، وليبالغ من ناحية أخري في مبدأ السمع والطاعة لولي الأمر ما دام ذلك في طاعة، وإنما وصى أبا ذر (ﷺ) بذلك، وبالغ في وصف الأمير بما ذكر، تصحيحا لمفهوم خاطئ وجده الرسول (ﷺ) في خطابه لأبي ذر في قوله: كَانَ النَّبِيُّ (ﷺ) يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ {وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ} [الطلاق: ٢-٣] فَجَعَلَ يُعِيدُهَا عَلَيَّ حَتَّى

(١) أخرجه مسلم في كتاب(الإمارة)، باب (وجوب طاعة الأمراء في غير معصية)، رقم (١٨٣٧).

(٢) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ٥٣٣/١٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب (الجماعة والإمامة)،باب (إمامة العبد والمولى)، رقم(٦٦١).

نَعَسْتُ، ثُمَّ قَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنَ الْمَدِينَةِ؟ "قُلْتُ: إِلَى السِّعَةِ وَالدَّعَةِ أَنْطَلِقُ فَأَكُونُ حَمَامَةً مِنْ حَمَامِ الْحَرَمِ. قَالَ: " فَكَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ مَكَّةَ؟ "قَالَ: قُلْتُ: إِلَى السِّعَةِ وَالدَّعَةِ إِلَى الشَّامِ وَإِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ. قَالَ: " فَكَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنَ الشَّامِ؟ "قَالَ: إِذًا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ أَضَعُ سَيْفِي عَلَى عَاتِقِي. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (ﷺ): " وَخَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ تَسْمَعُ وَتُطِيعُ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا "[1]؛ وذلك لما في السمع والطاعة لولاة الأمر من الخير والأمن والاستقرار، وعدم الفوضى واتباع الهوى، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون علي إظهار دينهم وطاعة ربهم، فجاءت الوصية في سياقها مناسبة لحال المخاطب، وما ينصلح به حاله ومآله من نصح وإرشاد.

وتأمل وصيته (ﷺ) لعبد الله بن عمرو بن العاص أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، دون صيام الدهر؛ مراعاة لحاله؛ حتى لا تفتر عزيمته ويضعف فلا يقوى علي العبادة، فقال له: " أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟ فقلت: بلى يا نبي الله ولم أرد بذلك إلا الخير، قال: فإنه بحسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام، قلت يا نبى الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فإن لزوجك عليك حقا، ولزورك عليك حقا، ولجسدك عليك حقا، قال: فصم صوم داود، فإنه كان أعبد الناس... كان يصوم يوما ويفطر يوما، قال: واقرأ القرآن في شهر، قال: قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك،...فاقرأ في كل سبع ولا تزد علي ذلك.... قال: فشددت فشدد الله علي، قال: وقال لي النبي (ﷺ) إنك لا تدري لعلك يطول بك العمر، قال: فصرت إلى الذي قال النبي (ﷺ)، فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله (ﷺ) "[2].

ووصية الرسول (ﷺ) لعبد الله بن عمرو بن بن العاص أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر أو أن يصوم يوما ويفطر يوما، وأن يختم القرأن كل شهر فيها مراعاة لحاله

(١) أخرجه مسلم في مسنده ، مسند الأنصار ، حديث أبي ذر الغفاري، رقم (٢١٥٥١).

(٢)أخرجه مسلم في كتاب(الصيام)،باب(النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به...)،ح(١١٥٩).

(ﷺ)؛ حتى لا يفتُر ولا يمل، فيترك العبادة بالكلية، فأرشده أن يتهجد بعض الليل وينام، ويصوم بعض الأيام، ويفطر بعضها، ويختم في كل شهر؛ لأن هذا أرفق به وأدعي للمواصلة.. لما في التعمق في صيام الدهر، وقيام كل الليل من آثار مرهقة تصيب الجسد بالضعف، والنفس بالفتور والملل فيفوت غرض العبادة المقصود وهدفها الأسمى، وتضيع حقوقا أخرى علي الإنسان، وهوما صرح به الرسول في رواية النسائي"... إِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتِ الْعَيْنُ، وَنَفِهت لَهُ النَّفْسُ، لَا صَامَ مَنْ صَامَ الْأَبَدَ..."[1].. فأتت وصيته (ﷺ) لعبد الله بن عمرإلي الطريقة المثلي في الصيام وقراءة القرآن بما يناسب حاله، وبما يتناسب وطبيعة النفس البشرية بما يحقق له غرض التقرب من الله، ولا يضعف الجسد والنفس عن طريق المثل الأعلي من واقع السابقين، وهو صيام داود (عليه السلام)، حتى يستمر في نشاط وإقبال علي العبادة وعدم التقصير في أداء الحقوق والواجبات.

وهكذا أتت توصيته (ﷺ) لكل شخص بما يناسب حاله، فالمربي الحق، والمعلم الناجح هو من يراعي ظروف طلابه وقدراتهم، وأحوال كل فئة منهم بل كل واحد منهم، ليعالجه بما ينسجم مع حاله، فلا يخاطب الأنثى بما يخاطب به الذكر، ولا يكلم الصغير بما يكلم به الكبير، ولا يتحدث إلى العامة بما يحدث به الخاصة، فهو مثل من يكلم إنساناً لغة غير لغته، ومن يأمر البدوي بما يأمر به الحضري، وإنما الصواب أن يعطي لكل متعلم على قدره وقدرته.

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب (الصيام)، باب (صوم عشرة أيام من الشهر)، رقم (٢٧٢٠).

المطلب الثالث: -

تنوع الخطاب النبوي في الفتوى بتنوع حال المُسْتَفْتِي

ضرب الرسول (ﷺ) مثلا رائعا في التيسير على أمته، وراعى أحوالهم، فلم يكلفهم إلا ما يطيقون امتثالا لقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ} [البقرة: ٢٨٦]، فكان يراعي أحوال المستفتين، فيفتي كل سائل بما يناسبه، ولذا كان يستفصل من السائل ويستوضح منه قبل أن يمنحه الجواب، لتكون الفتوى مطابقة لحال السائل والمسئول عنه، ففي قصة النعمان بن بشير (رضي الله عنه) أن أمه بنت رواحة سألت أباه بعض الهبة من ماله لابنها، ثم بدا له فوهبها لي، فقالت: لا أرضى حتى تشهد رسول الله على ما وهبت لابني، فأخذ بيدي وأنا يومئذ غلام، فأتى رسوا الله (ﷺ)، فقال: يا رسول الله، إن أمه هذه بنت رواحة أعجبها أن أشهدك على الذي وهبت لابنها، فقال رسول الله (ﷺ): "يا بشير، ألك ولد سوى هذا؟ "قال: نعم، فقال: "أكلهم وهبت له مثل هذا؟ "قال: لا، قال: "فلا تشهدني إذا فإني لا أشهد على جور "[(١)].

فالرسول (ﷺ)لم يقل: نعم أو لا، وإنما استوضح السائل عن بعض الأمور، ولم يجبه حتى تعرف على حاله، بقوله: ألك ولد سوى هذا؟، وقوله: أكلهم وهبت له مثل هذا؟، ومن ثم أتت فتواه (ﷺ) محققة للعدل بين الأبناء في العطية؛ مراعية لحالهم؛ لينشر الحب والمودة بين أفراد الأسرة، ويؤدي إلى برهم.

ومما يؤكد اهتمامه (ﷺ) بالتعرف على أحوال المستفتي، أن زينب امرأة عبد الله (رضي الله عنه) قالت: كنت في المسجد فرأيت النبي (ﷺ) وقد قال: "تصدقن ولو من حليكن"، وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام في حجرها، فقالت لعبد الله: سل رسول الله (ﷺ)

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب(الهبة)، باب(كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة)، رقم(١٦٢٣).

أيجزئ عني أن أنفق عليك وعلى أيتام في حجري من الصدقة؟ قال: سلي أنت رسول الله (ﷺ)، فانطلقتُ إلى النبي(ﷺ) فوجدت امرأة من الأنصار على الباب حاجتها مثل حاجتي، فمر علينا بلال (ﷺ)، فقلنا: سل النبي (ﷺ) أيجزئ عني أن أنفق على زوجي وأيتام لي في حجري؟، وقلنا له لا تخبر بنا، فدخل فسأله، فقال: "من هما؟ "قال: زينب، قال: "أي الزيانب؟ "قال: امرأة عبد الله بن مسعود، قال: " نعم ولها أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة "[1].. فقد استوضح النبي (ﷺ) عن السائلة؛ حتى يتعرف على حالها، لتكون إجابته ملائمة لحالها.

كما كان الرسول (ﷺ) يراعي أحوال المأمومين في الصلاة، ويأمر بالتخفيف عليهم؛ لأن فيهم أصحاب الأعذار، ومن ذلك غضبه الشديد من مُحِبِّه معاذ (ﷺ) حين صلى بالناس، وأطال بهم الصلاة، وكان في المأمومين رجل له حاجة، فصلى منفردا حين أطال بهم معاذ، وهو ما جاء في رواية جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ: أقبل رجل بناضحين وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ، وَأَقْبَلَ إِلَى مُعَاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ، أَوْ النِّسَاءِ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ، وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ (ﷺ) فَشَكَا إِلَيْهِ مُعَاذًا، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): "يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ. أَمُصْل. أَنْتَ (ثلاث مرات:)فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضعيف وذو الحاجة"[2].

أفتى الرسول(ﷺ) بالتخفيف في الصلاة؛ مراعاة لحال السائل، و" مراعاة لحال المأمومين، ومن هنا قال بعضهم لا يكره التطويل إذا علم رضا الأمومين "[3].

---

(١)أخرجه البخاري في كتاب(الزكاة)، باب(الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر)، رقم (١٤٦٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب(الجماعةوالإمامة)، باب(من شكا إمامه إذا طول)، رقم(٦٧٣).
والناضحين: الإبل التي يُستقى عليها الماء.

(٣) المنهل الحديث في شرح الحديث، د. موسى شاهين: ١/١٧١، دار المدار الإسلامي ـ ليبيا، ط: الأولى٢٠٠٢م.

وقد رخَّص لعمران بن حصين (ﷺ) الصلاة قائما لمرضه بالبواسير، يقول عمران بن حصين: كانت بي بواسير، فسألت النبي (ﷺ) عن الصلاة، فقال: "صل قائما، فإن لم تستطع، فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب "(١)، فأفتى الرسول (ﷺ) هنا بما يناسب حال المستفتي، فأجاز له الصلاة قاعدا عند عجزه عن الوقوف، وعلى جنبه عند عجزه عن الصلاة قاعدا، تأكيدا على إنسانية الإسلام، فيسقط القيام بعدم الاستطاعة.

وربما سئل النبي (ﷺ) عن أشياء فسكت كراهية للسؤال، وكراهية أن يكون في الإجابة مشقة تلحق بالسائل وغيره، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة (ﷺ) قال: خطبنا رسول الله (ﷺ)، فقال: " أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا "، فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله (ﷺ) " لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم.... "(٢)، فجاء صمت الرسول (ﷺ)، وعدم إجابته بنعم أو لا رعاية لحال المستفتي والأمة جميعا في عدم قدرتها على أداء فريضة الحج في كل عام.

وقد تكون الفتوى بترك الجهاد مراعاة لحال المخاطب، كما في حديث ابن عباس، قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يخطب، فقال: "... ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم "، فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت للحج، وإني اكتتبت – سجلت اسمي – في غزوة كذا، فقال: " انطلق فحج مع امرأتك "(٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب: (الجمعة)، باب: (إذا لم يطق قاعدا يصلي على جنبه)، رقم (١٠٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب(الحج)، باب(فرض الحج مرة في العمر)، رقم(١٣٣٧).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب(الحج)، باب(سفر المرأة مع محرم)، رقم(١٣٤١).

فعلى الرغم من أنهم كانوا يسافرون للحج بالقوافل مع الصحابة، إلا أنه (ﷺ) أمره باللحاق بزوجته على الفور، ورخص له في ترك الجهاد؛ رعاية لحال زوجته، حيث لا يجوز أن تسافر بغير محرم، فيترك جهاد الفريضة لأجل المحرم؛ لحفظ النساء والبيوت والمجتمعات.

وتأمل هذه الفتوى التي تحول فيها المستفتي الذي ينتظر العقاب لمواقعته زوجته في نهار رمضان بإطعام ستين مسكينا إلى متصَدقٌ عليه، مُنتَفِع بالكفارة، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: بينما نحن جلوس عند النبي (ﷺ) إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، هلكت، قال: مالك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله (ﷺ): هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا، قال: فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟ قال: لا، قال: فمكث النبي (ﷺ)، فبينما نحن على ذلك أتى النبي (ﷺ) بعَرَقٍ فيها تمر – والعرق: المِكْتَلُ – قال: أين السائل؟ قال: أنا، قال: خذ هذا، فتصدق به، فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابَتَيْهَا – يريد الحَرَّتَين – أهل بيت أفقرُ من أهل بيتي، فضحك النبي (ﷺ) حتى بدت أنيابه، ثم قال: أطعمه أهل بيتك" [1].

فالرسول (ﷺ) في هذه الفتوى راعى حال المستفتي، فلم تقتصر شفقته عليه ولطفه به على جواز التكفير عن الذنب الذي ارتكبه فقط، بل عَدَّد له أنواع الكفارات ليختار منها ما يناسب حاله، ولم يقف لطفه به عند هذا الحد، وإنما راعى حال فقره وحاجته، فجعل إطعام ما وجده من الصدقة لأهل بيته يكفيه عن إطعام ستين مسكينا، فجاءت الفتوى تبعا لحال المستفتي وظروف فقره وفاقته.

ومن أبرز الأمثلة على اختلاف الفتوى وتنوعها بتنوع حال المستفتي، القبلة في الصيام، يتغير حكمها باعتبار حال الفاعل، فقد رخص الرسول (ﷺ) بها للشيخ ونهى

(١) أخرجه البخاري في كتاب(الصيام)، باب(إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيئ، فتُصُدق عليه)، رقم(١٩٣٦).

عنها الشاب، ومن ذلك ما رواه عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ (ﷺ) فَجَاءَ شَابٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُقَبِّلُ وَأَنَا صَائِمٌ؟ فَقَالَ: "لَا"، فَجَاءَ شَيْخٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُقَبِّلُ وَأَنَا صَائِمٌ؟ قَالَ: "نَعَمْ"، فَنَظَرَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): "قد عَلِمْتُ نَظَرَ بَعْضِكُمْ إِلَى بَعْضٍ، إِنَّ الشَّيْخَ يَمْلِكُ نَفْسَهُ" (١).

وهنا وقع الخلاف في فتواه (ﷺ) بين حكم تقبيل الشاب والشيخ في الصوم مراعاة لاختلاف بينهما في القدرة والسيطرة على النفس، فجاءت فتواه (ﷺ) بين الجواز والمنع تبعا لحال المخاطب، فرخص للشيخ ونهى عنه الشاب.

ومن النماذج الفريدة الدالة على تنوع الفتوى بتنوع حال السائل، ترخيصه(ﷺ)المباشرة(٢)للشيخ' وهو صائم، ونهى عنها الشاب؛ مراعاة لحال كل منهما؛ لأن الشيخ أملك لنفسه، بخلاف الشاب، وذلك فيما رواه أبو هريرة (ﷺ) {أن رجلا سأل النبي(ﷺ) عن المباشرة للصائم فرخص له، وأتاه آخر فنهاه، فإذا الذي رخص له شيخ، والذي نهاه شاب }(٣).

فلم يكن الاختلاف في فتواه (ﷺ) بين حكم مباشرة الشاب والشيخ، إلا مراعاة لاختلاف القدرة على السيطرة على النفس بين الشاب والشيخ، ومن ثم تباينت الفتوى في الحالين بتنوع حال المستفتي، عصمة للشاب، وسدا للذريعة، وحفاظا على صومه.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، في مسند المكثرين من الصحابة، رقم(٧٠٥٤).

(٢) مَعْنَى الْمُبَاشَرَةِهُنَا اللَّمْسُ بِالْيَدِ وَهُوَ مِنَ الْتِقَاءِ الْبَشَرَتَيْنِ، أي ملامسة بشرة الرجل لبشرة المرأة. ينظر: تحفة الأحوزي: ٣/٣٥١.

(٣) سنن أبي داود، كتاب (الصيام)، باب(كراهية المباشرة للشاب)، رقم(٢٣٨٤).

المطلب الرابع: -
تنوع الخطاب النبوي تبعا لمكانة المخاطب.

أوصت الشريعة الإسلامية بمراعاة أقدار الناس ومنازلهم التي أنزلهم الله إياها، فالناس فيهم الملك والسوقة، والعالم والجاهل، والكبير والصغير، والسيد والمسود، وغيرهم.. ومن عوامل تأثير الداعية ونجاحه في دعوته أن يُنزل المدعوين منازلهم، فللكبير حق الاحترام والتوقير، وللصغير حق العطف والرحمة، ولأشراف القوم والملوك حق التقدير... وهكذا.

والداعية الحكيم هو الذي يدرس الواقع، وأحوال الناس، ومعتقداتهم، ويُنزل الناس منازلهم، ثم يدعوهم على قدرعقولهم، وأفهامهم، وطبائعهم، وأخلاقهم، ومستواهم العلمي والاجتماعي، والوسائل التي يؤتون من جهتها؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب(ﷺ): "حَدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبّون أن يُكذّب الله ورسوله" [1].

ولاشك أن إعطاء الداعية للناس قدرهم، وإنزالهم منازلهم، ومخاطبتهم بما يناسب حالهم ومكانتهم أدعى إلى قبول دعوته، والرضا عنه، والرغبة في التمسك به واتباعه، وخير شاهد على ذلك قوله تعالى لموسى (عليه السلام): {ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤} [طه: ٤٣-٤٤]، وهكذا يكون الكلام مع الملوك وأرباب الرئاسة، حيث اللين والتودد المناسب لمراتبهم ومنازلهم.

وقد تمسك الرسول (ﷺ) بهذه الحكمة في دعوته، فراعى أقدار المخاطبين ومنازلهم المختلفة، تقول عائشة (ﷺ): "أمرنا رسول الله(ﷺ) أن ننزل الناس منازلهم" [2].

---

(١) مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة: ٩٩. والحديث أخرجه البخاري في كتاب (العلم)، باب (من خص قوماً بالعلم دون قوم كراهية أن لا يفهموا)، رقم(١٥٧.)

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، مقدمة الكتاب :١/٥.

وهنـاك الكثيـر مـن المواقـف والأحاديـث التـي تكشـف عـن هـذا الجانـب مـن دعوتـه(ﷺ)، وكـان لهـا أثرهـا القـوي فـي تـأليف القلـوب واسـتمالتها بتقويـة آصـرة الألفـة والمودة، ونبذ الشقاق وسوء الأخلاق... ومن ذلك ما روته السيدة عائشة (ﷺ) {أنه مر بها سائل فأعطته كسرة، ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة، فأقعدته، فقيل لها في ذلك، فقالت: أمرنا رسول الله (ﷺ) أن ننزل الناس منازلهم} [(١)].

كشفت السيدة عائشة (ﷺ) عن سبب صنيعها، حين أعطت الأول كسرة خبز وأجلست الثاني فأطعمته – بأنه من باب إنزال الناس منازلهم . والمقصود معاملة كل أحد بما يلائم منصبه في الدين والعلم والشرف، فالمراد بالحديث: " الحَضُّ على مراعاةِ مقادير الناس، ومراتبهم، ومناصبهم، فيعامل كلُّ أحد منهم بما يليقُ بحاله، وبما يلائمُ منصبه في الدينِ والعلمِ والشَّرَفِ والمرتبة؛ فإنَّ الله تعالى قد رتَّبَ عبيده وخَلقَه، وأعطى كلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه، وقد قال(ﷺ): خيارُهُم في الجاهليَّةِ خيارُهُم في الإسلام إذا فقُهُوا "[(٢)].

قال المُناوي في المراد بقوله (ﷺ): " أنزلوا الناس منازلهم "أي: " احفظوا حرمة كل واحد على قدره، وعاملوه بما يلائم حاله في عمر، ودين، وعلم، وشرف، فلا تسووا بين الخادم والمخدوم، والرئيس والمرؤوس؛ فإنه يُورِث عداوةً، وحقدًا في النفوس... وهذا مما أدب به المصطفى (ﷺ) أمته من إيفاء الناس حقوقهم من تعظيم العلماء والأولياء وإكرام ذي الشيبة وإجلال الكبير وما أشبهه "[(٣)].

فـ" العاقل يعاشرأهل دُنْيَاهُ على مَا دبر الله لَهُم فالغني قد عوده الله النِّعْمَة وَهِي مِنْهُ كَرَامَة ابتلاء لَا كَرَامَة ثَوَاب... فَإِذا لم تنزله الْمنزلَة الَّتِي أنزل الله تَعَالَى استهنت بِهِ وجفوته من غير جرم اسْتحق بِهِ ذَلِك الْجفَاء، وَترَكه مُوَافقَة الله تَعَالَى فِي تَدْبيره،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، مقدمة الكتاب :١/٥.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي: ١/١٢٧.

(٣) فيض القدير: ٣/٥٧.

وأفسدت عَلَيْهِ دينه، وَهُوَ قَوْله (ﷺ)(أنزلوا النَّاس مَنَازِلهمْ)، أَي الْمنَازل الَّتِي أنزلهم الله من دنياهم، أما الْآخِرَة فقد غيب شَأْنهَا عَن الْعباد فَإِذا سويت بَين الْغَنِيّ وَالْفَقِير فِي مجْلِس أَو مأدبة أَو هَدِيَّة كَانَ مَا أفسدت أَكثر مِمَّا أصلحت فَإِن الْغَنِيّ يجد عَلَيْك إِذا أزريت بِحقِّهِ فَإِن الله تَعَالَى لم يعودهُ ذَاك وَالْفَقِير يعظم ذَلِك الْقَلِيل فِي عينه ويقنع بذلك لِأَن تِلْكَ عَادَته، وَكَذَلِكَ مُعَاملَة الْمُلُوك والولاة على هَذَا السَّبِيل فَإِذا عاملت الْمُلُوك بمعاملة الرّعية فقد استخففت بِحَق السُّلْطَان، وَهُوَ ظلّ الله تَعَالَى فِي أرضه بِهِ تسكن النُّفُوس وتجتمع الْأُمُور" (١).

فكان الرسول (ﷺ) لا يتعامل مع المدعوين ومع الخلق من منطلق واحد، وإنما كان يعلم أن فيهم العالم والجاهل، والحكيم والمتهور، والشريف والوضيع، وفي ذلك يقول الرسول (ﷺ): " إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ "(٢).

وكان يعامل كل واحد من هؤلاء على حسب طبعه وقَدْرِه، ويعطي كل ذي منزلة حقه اللائق به، فللأمير منزلته، وللوجيه منزلته، وللعالم منزلته الخاصة به، وللكبير منزلة تختلف عن منزلة الصغير، وللمعلم منزلة تختلف عن منزلة التلميذ، فلكل حقه اللائق به، ومن ذلك قوله (ﷺ) في مراعاة حق الكبير، واحترام شيخوخته، وتقدير مكانة حامل القرآن، والسلطان المقسط: " إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ "(٣)، وقوله (ﷺ)فيما رواه

(١) نوادر الأصول في أحاديث الرسول (ﷺ)، الحكيم الترمذي: ١/١١٠، تح: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل – بيروت(دون).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب(السنة)، باب(القدر)، رقم(٤٦٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب(إجلال الكبير)، رقم(٣٥٧).

عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا"(١).

فـ" على المؤمن أن ينزِل الناس منازلهم، ولا يجعلهم على حدٍّ سواء، في إكرامهم وتقديرهم، بل على حسَب مراتبهم في الدين، ومراتبهم في كِبَر السن، ومراتبهم في وظائفهم الشرعية، فالقاضي له حقه، والعالم له حقه، والسلطان له حقه، والأمير له حقه، والشيخ كبير السن له حقه، والوالد له حقه، والأخ الكبير له حقه، والجار له حقه، وهكذا فكل إنسان يعطَى حقه المناسب له بحسَب ما جاءت به الشريعة "(٢).

وتأمل حكمته (ﷺ) وموقفه من أبي سفيان حين أسلم في فتح مكة، وأراد تثبيته على الإسلام، وإنزاله منزلته اللائقة به، فكان تكريمه له بقوله: " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن "، حين قال له العباس: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فلو جعلت له شيئاً؟ قال: " نعم، مَن دخل دَارَ أبي سفيان، فهو آمنٌ، ومن أغلقَ بَابَهُ فهو آمنٌ"(٣).. وبهذه المقولة نراه(ﷺ) قد أشبع مشاعرأبي سفيان، وراعى ما في نفسه من حب للفخر والظهور، وناسب مكانته كسيد من سادات قريش، وزعيما من زعمائها، والداعية الحكيم هو الذي يقدر ظروف من يدعوه، ويراعي حاجاته النفسية ومشاعره، وكل أحواله.. يقول السيوطي: " إذا كَانَ شخص ذَا كَرَامَة فِي قومه بَأن كَانَ رَئِيسا وَسَيِّدًا فيهم فأكرموه فَإِنَّهُ إِذا لم يُكرمهُ كَانَ لَهُ ولقومه ضغن وحقد مِنْهُ وَيحصل لَهُ الْأَذَى من جهتهم هَذَا إِذا كَانَ

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب(رحمة الصغير)، رقم(٣٦٣).

(٢) مراقي العزة ومقومات السعادة(وقفات قرآنية ووصايا وفوائد وفرائد علمية تربوية وحكم ومعان شعرية)، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم: ١٤٦بتصرف، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمام – السعودية، ط: الأولى١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب(الحج)، باب(ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام)، رقم(١٩٦). ومسلم في كتاب (فضائل الصحابة،باب(من فضائل أبي سفيان)،رقم(٥٥٧٩).

الْقَوْم جهلة، وَلَكِن يَنْبَغِي أن يحمل هَذَا الْأَمر بالإكرام على مَا إِذا لم يحصل لَهُ ضَرَر فِي دينه فان تبجيل الْكفْر كفر وَفِي الحَدِيث من وقر صَاحب بِدعَة فقد أعَان على هدم الْإِسْلَام.. "[1]، وفي ذلك يقول الرسول (ﷺ) تقديرا لصاحب المنزلة والمكانة فيما رُوي عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): " إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ "[2].. فاضلوا بين الناس في الحقوق على حسب منازلهم ومراتبهم، بخلاف الحدود وأشباهها فقد سوى الشرع بينهم فها [3].

ومن مراعاة منزلة المخاطب وقدره في الإسلام، وكونه من السابقين ما حدث يوم فتح مكة، وكان (ﷺ) إذا أراد أن يغزو ورَّي إلا في فتح مكة أخبر به أصحابه، فكتب حاطب ابن أبي بلتعة كتابا بذلك إلى قريش، حتى تكون له عندهم يد، ويحفظوا أهله وماله بمكة، فعن علي (ﷺ) قال: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) وَالزُّبَيْرَ وَأَبَا مَرْثَدٍ وَكُلُّنَا فَارِسٌ، قَالَ انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ حَاجٍ فَإِنَّ فِيهَا امْرَأَةً مَعَهَا صَحِيفَةٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَأْتُونِي بِهَا فَانْطَلَقْنَا عَلَى أَفْرَاسِنَا حَتَّى أَدْرَكْنَاهَا حَيْثُ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) تَسِيرُ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، وَقَدْ كَانَ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ بِمَسِيرِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) إِلَيْهِمْ فَقُلْنَا أَيْنَ الْكِتَابُ الَّذِي مَعَكِ قَالَتْ مَا مَعِي كِتَابٌ فَأَنَخْنَا بِهَا بَعِيرَهَا فَابْتَغَيْنَا فِي رَحْلِهَا، فَمَا وَجَدْنَا شَيْئًا فَقَالَ صَاحِبَايَ مَا نَرَى مَعَهَا كِتَابًا، قَالَ: فَقُلْتُ لَقَدْ عَلِمْنَا مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) ثُمَّ حَلَفَ عَلِيٌّ وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَأُجَرِّدَنَّكِ فَأَهْوَتْ إِلَى حُجْزَتِهَا، وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ، فَأَخْرَجَتْ الصَّحِيفَةَ فَأَتَوْا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ،

(١) شرح سنن ابن ماجه للسيوطي: ٢٦٤، قديمي كتب خانة – كراتشي (دون).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان)، باب(قول النبي الدين النصيحة)، رقم(٤٤).

(٣) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ٥٥/١.

دَعْنِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) يَا حَاطِبُ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَالِي أَنْ لَا أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَكِنِّي أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يُدْفَعُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِكَ أَحَدٌ إِلَّا لَهُ هُنَالِكَ مِنْ قَوْمِهِ مَنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، قَالَ: صَدَقَ لَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَ فَعَادَ عُمَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ دَعْنِي فَلْأَضْرِبْ عُنُقَهُ، قَالَ: أَوَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ أَوْجَبْتُ لَكُمُ الْجَنَّةَ، فَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ"[1].

تأمل كيف راعى النبي (ﷺ)منزلة حاطب في الإسلام، لكونه من السابقين الأولين إلى الدين الإسلامي، فمع أن الخطأ كبير إلا أن الرسول (ﷺ)عامله بلين دون تعنيف، مقدرا لحظة الضعف البشري التي قد تمر بالبعض، مراعيا ما له من حسنات عظيمة سابقة أخذها الرسول (ﷺ) في الاعتبار عند تقويم خطئه واتخاذ موقف منه.

ومن النماذج الشهيرة في إنزال الناس منازلهم، وتقدير دورهم ومكانتهم، ما فعله الرسول (ﷺ)مع خالد بن الوليد الذي كان شديدا على المسلمين، لاسيما في غزوة أحد، فعندما أسلم أخوه الوليد ودخل مكة في عمرة القضاء سأله الرسول (ﷺ) عن خالد، فقال له: أين خالد؟ قال: يأتي الله به، فكتب له كتابا، فإذا فيه ": بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد- فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وقلة عقلك، ومثل الإسلام يجهله أحد، قد سألني عنك رسول الله (ﷺ) فقال أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به، فقال: ما مثله يجهل الإسلام، ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيرا له، ولقد مناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما فاتك، فقد فاتك مواطن صالحة، فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وسرتني مقالة رسول الله(ﷺ)، ورأيت في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب(استتابة المرتدين)، باب(ما جاء في المتأولين)، رقم(٦٥٢٣).

المنـام كـأني فـي بـلاد ضـيقة جدبـة فخرجـت إلـى بـلاد خضـراء واسـعة.. فتشـجع وأسلم..."[1].

وترسيخا لقضية إنزال الناس منازلهم، ورعاية أقدارهم كان قوله (ﷺ)في تقديم الأقرأ لكتاب الله تعالى، ثم الأعلم بالسنة، تقديرا لمكانة هؤلاء ودرجتهم العالية، ومنزلتهم السامية، وذلك فيما رواه أَبومَسْعُود الأنصاري(ﷺ)، عَن النَّبِيّ (ﷺ) قَالَ: "يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ فَإِن كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاء فأقدمهم هِجْرَةً فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَكْبَرُهُمْ سِنًّا... " [2].

وفي رعاية المنزلة هنا واعتبار المكانة من التقديس للقرآن والعلم والهجرة ما فيه، حيث عامل قارئ القرآن والعلم هنا بالتوقير والإجلال، وحث على التواضع لهما، وإظهار الافتقار والحاجة إلى علمهما النافع، والاقتداء بهما.

ومن أظهر النماذج على رعايته (ﷺ) لمنزلة الرجال واعتبار مكانتهم في أقوامهم موقفه (ﷺ) من ثمامة بن أثال، وكان سيدا في قومه، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: "بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فربطوه بسارية من سواري المسجد. فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فَقَالَ: مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ؛ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ

(١) السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي وغيره: ٨٨/٣، دار الكتب العلمية – بيروت ط: ثانية – ١٤٢٧هـ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب(الأذان)، باب(أَهْلِ العِلْمِ والفَضْلِ أَحَقُّ بِالإِمَامَةِ)، رقم(٤٦).

كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) حَتَّى كَانَ مِنَ الْغَدِ، فَقَالَ: مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ؛ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ. فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ (ﷺ)، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصَبَوْتَ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ (ﷺ)، وَلَا وَاللهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ (ﷺ)" [(١)].

وهكذا فعل الرسول (ﷺ) مع أولئك السادة في أقوامهم، من رعاية حالهم واحترام منزلتهم بين أقوامهم، فلما رأى ثمامة . وكان سيد قومه . من حسن معاملة النبي (ﷺ) له دخل الإسلام، وأسلم بإسلامه خلق كثير، وفيه "تعظيم أمر العفو عن المسيء لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حبا في ساعة واحدة لما أسداه النبي (ﷺ) إليه من العفو والمن بغير مقابل... وفيه الملاطفة بمن يرجى إسلامه من الأسارى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه" [(٢)].

وفي دعوته (ﷺ) الملوك والأمراء وقادة الأمم والشعوب والرؤساء راعى قدرهم، واحترم منزلتهم ومكانتهم، فاختار إرسال الرسائل إليهم وسيلة لدعوتهم، وخصهم بها،

(١)أخرجه مسلم في كتاب(الجهاد والسير)،باب(ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه)،ح(١٧٦٤).
(٢) فتح المنعم شرح صحيح مسلم: ١٧٨/٦.

وهـي وسيلة تتناسب مـع أقدارهم.. كمـا خـتم رسـائله إلـيهم؛ لعلمـه أنهـم لا يقـرءون إلا الرسائل المختومة، فضلا عن أنه خص دحية رسولا إليهم؛ مراعاة لحالهم حيث كان من أحسن النـاس وجههـا، فـ "قد كـان النبـي(ﷺ) ينتقـي سفراءه ورسله بمواصفات، منهـا: الحكمة والشجاعة، والعلم، والصبر، وسعة الحيلة، والمظهر الحسن، فإذا كان المسلمون كلهم دعاة، فرسل النبي (ﷺ)إلى الملوك هم صفوة الدعاة"(١).

تأمل رسالته إلى هِرَقل (ملك الروم) "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ}(٢)[آل عمران: ٦٤].

وكما ترى فقد صاغ الرسول (ﷺ) رسالته إلى هرقل بمنتهى الحكمة، حيث راعى حالـه ومكانتـه، فهـو يـدعوه ولا يهـدده، ويخاطبـه بلقبـه، ويعترف بمكانتـه وفضلـه، " هرقل عظيم الروم "، فيقرر أن سلطانه باق في ظل الإسلام، ليؤكد له أنه ليس طالب ملك، كما عبر عن نفسه بالرسالة (رسول الله) إشارة إلى أنه مرسل إلى الناس كافة وليس للعرب فقط، والملوك وغيرهم، كما كثرت ألفاظ السلام" سلام . الإسلام . أسلم . تسلم "؛ ليبعث في نفسه الأمن والطمأنينة على نفسه وملكه، مما يمنح الرسالة قوة التأثير في النفس.

قال النـووي: " لـم يقل: إلـى هرقل فقط، بل أتـى بنـوع من الملاطفة، فقال: عظيم الروم، أي الذي يعظمونه ويقدمونه، وقد أمر الله بإلانة القول لمن يدعى إلى الإسلام، فقال: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا}"(٣) [طه: ٤٤].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٠٧/١٢-١٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب(كيف يكتب إلى أهل الكتاب)، رقم(١١٠٩).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: ١٠٨/١٢.

وكذلك فعل في رسالته إلى كسرى في قوله: " من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافّة لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ "[1].. كما فعل مع المقوقس ملك مصر في كتابه إليه الذي استهله بقوله: " من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط "[2].

كما راعى الرسول (ﷺ) أحوال الوافدين الذين يأتون في الغالب بهدف التعرف على الإسلام، فكان يستقبلهم أفضل استقبال، حتى أنه كان يتجمل عند لقائهم؛ حفاوة بهم، وتقديرا لهم، فقد رَأَى عُمَرُ(رضي الله عنه)عَلَى رَجُلٍ حُلَّةً مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، فَأَتَى بِهَا النَّبِى (ﷺ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اشْتَرِ هَذِهِ، فَالْبَسْهَا لِوَفْدِ النَّاسِ إِذَا قَدِمُوا عَلَيْكَ... " [3].

وفي ذلك من رعاية حال الوفود والاهتمام بأمرهم ما فيه، حيث يغلب عليهم أن يكونوا من سادة القوم وعليتهم، ففي الحديث "جواز تجمل الخليفة والإمام للوفود القادمين عليه بحسن الزى وجميل الهيئة ألا ترى قول عمر للنبى: "اشترهذه فالبسها لوفد الناس إذا قدموا عليك، وهذا يدل أن عادة النبى كانت جارية بالتجمل لهم" [4].

ومن تنوع خطابه (ﷺ) بين العلماء والعامة، لتنوع منزلتهم، ما رواه البراء بن عازب (رضي الله عنه)، قَالَ: مُرَّ النَّبِيُّ(ﷺ) بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمٍ مَجْلُودٍ، فَدَعَاهُمْ فَقَالَ: "هَكَذَا تَجِدُونَ فِي

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: ٦/٢٨٤.

(٢) جمهرة رسائل العرب في عصور العربية المؤلف: أحمد زكي صفوت: ١/٤٣، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان(دون).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب(الأدب)، باب(من تجمل للوفود)، رقم(٩٩).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال: ٩/٢٧٥.

كِتَابِكُمْ حَدَّ الزَّانِي؟! "، قَالُوا: نَعَمْ، فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَالَ: "أَنْشُدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى؛ أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي؟ "، قَالَ: لَا، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي.. لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِنَا الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا الرَّجْمُ، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ.. تَرَكْنَاهُ، وَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ.. أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، فَقُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَى التَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ مَكَانَ الرَّجْمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) وَسَلَّمَ: "اللَّهُمَّ؛ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ وَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ" [1].

فرعاية المكانة والمنزلة هنا بادية للعيان، حيث تنوع أسلوب النبي (ﷺ) في الخطابين رعاية لما بين العلماء والعوام من فارق في المكانة والمنزلة، فالرسول (ﷺ) قدم بين سؤاله العالم استنشادا بالله سبحانه وتعالى، تذكيرا له، لقربه من الله وخوفه منه، بخلاف العوام الذي جاء خطابهم خاليا من هذا الاستنشاد؛ إذ ليس لهم علم يردعهم عن الكذب والتجاوز، أما العلماء فعلمهم، فضلا عن معرفتهم بصدق الرسول(ﷺ) -من خلال كتبهم -يمنعهم من الكذب، ولذا لم يستنشدهم بلفظ الجلالة فقط، وإنما ذكر الاسم الموصول وصلته (الذي أنزل التوراة)؛ إشارة إلى علاقته القوية بما في التوراة من تبشير به (ﷺ)، ومعرفته بصدقه لمزيد اطلاعه على ما فيها... فكان في الخطاب النبوي رعاية لمنزلة العلماء، واعترافا بقدرهم، وثقة في دورهم المميز المؤثر.

كما راعى الرسول (ﷺ) صفة الحياء الجم في عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، ومكانته التي جعلت الملائكة تستحي منه لدرجة "أن صفة الحياء عند عثمان كانت أحيانا تمنعه بعض حاجاته فراعى (ﷺ) غلبة هذه الصفة في عثمان" [2]، ومن ذلك ما روته عائشة

(١) أخرجه مسلم في كتاب(الحدود)، باب(رجم اليهودي أهل الذمة في الزنا)، رقم(١٧٠٠).
(٢) عمدة القاري: ٤/ ٨٢.

(ﷺ) قالت: كان رسول الله (ﷺ) مضطجعا في بيتي كاشفا عن فخذيه، أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله (ﷺ) وسوى ثيابه، . . . قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهش له، ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست، وسويت ثيابك، قال: "ألا أستحيي من رجل تستحي منه الملائكة؟ " [1]، فجاء جلوسه واعتداله وتسوية ثيابة مراعاة لحال عثمان (ﷺ).

وخير مثال على تنوع الخطاب النبوي بتنوع منزلة المخاطب، دعاؤه (ﷺ)لعمه أبي طالب وحزنه الشديد على عدم إسلامه، في حين كان غضبه شديدا من عمه أبي لهب ودعى على ابنه عتيبة؛ لاضطهادهما له (ﷺ)، وإيذائهما له في ابنته(أم كلثوم)، فدعا عليه (ﷺ) بقوله: "اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا من كِلَابِكَ فَأَكَلَهُ الْأَسَدُ" [2].

في حين كان حريصا على إسلام عمه أبي طالب، محبا له ولإبنه علي (كرم الله وجهه)، لأنه آزره وحماه من أذى قريش، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ (ﷺ)، وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، فَقَالَ: "أَيْ عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ بِهَا لَكَ عِنْدَ اللهِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ قَالَ: فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ: آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): " لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ"[3].

---

(١)أخرجه مسلم في كتاب(فضائل الصحابة)، باب(من فضائل عثمان بن عفان ﷺ)،ح(٢٤٠١).

(٢) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، للمتقي الهندي : ٤٣٩/١٢باب (فضائل النبي) تح: بكري حيان وصفوة السقا ، مؤسسة الرسالة ، ط: خامسة١٤٠١هـ . ١٩٨١م.

(٣) أخرجة البخاري في كتاب (الأيمان والنذور)، باب (إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبح)، رقم(٦٦٨١).

والفـارق بـين الحـالين، والمـوقفين يعكـس الفـارق بـين الخطـابين، والبعـد بـين المنـزلتين، علـى الـرغم مـن أن كليهمـا عم النبـي (ﷺ)، غيـر أن مكانـة أبـي طالـب وابنـه علـى النقـيض تمامـا مـن منزلـة أبـي لهـب وابنـه؛ لموقـف كـل منهمـا منـه فـي مسـيرته الدعويـة.. نـرى ذلـك فـي نـداء العمومـة، بمـا فيـه مـن تلطـف وإينـاس، وحـرص شـديد علـى إقبال عمه واستجابته.

ومن رعايته (ﷺ) لمقام كبار السن، ومنزلتهم، ما حدث حين جَاءَهُ أَبُو بكر (ﷺ) يَوْم فتح مَكَّة بِأَبِيهِ ليسلم قَالَ (ﷺ) لما عَنَّيت الشَّيْخ يَا أَبَا بكر أَلا تركته حَتَّى أكون أَنا آتيه فِي منزله... " [1].

وإنمـا أنـزل الرسـول (ﷺ) كبـار السـن هـذه المنزلـة؛ لمـا يبـدو عليـهم فـي كبـر السـن مـن الوقـار والطمأنينـة والحـرص علـى الخيـر، والبعـد عـن المحرمـات والإقبـال علـى الله تعالى، فضلا عن أن كلا منهم يشعر بدنو أجله ومفارقة الحياة فيكون أكثر خيرا، فكان حقا علينا أن نعرف لهم قدرهم ومنزلتهم.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري: ٢٦٣/١٨.

المطلب الخامس:-

تنوع تكليفات النبي (ﷺ) وتحديد المهام بتنوع أحوال المخاطبين وقدراتهم.

تعد ظاهرة التميز الفردي من أهم حقائق الوجود الإنساني، خلقها الله في الإنسان حتى تجد الاختلاف واضحا بين البشر في قدراتهم العقلية، وبقدر مراعاة المعلم لهذه الفروق، وتلك المستويات يكون نجاحه، فلكل فرد طاقته وقدراته واستعداداته الخاصة به.. وقد حثت التربية الإسلامية على مراعاة التميز الفردي والقدرات الخاصة، وجعلتها على رأس الأساليب التي نادت بها ضمن مصادرها الأصلية، حيث جعل الله تعالى التكاليف الشرعية لكل مسلم تبعا لما أودعه فيه من قدرات، ومميزات خلقية وجسمية وعقلية أو غيرها من مكونات الشخصية الإنسانية، فكل دقيقة يولد فيها آلاف من الناس، وكل إنسان له فرديته وطريقته وشخصيته، وله فروقه الخاصة في صوته وشكله وقدرته وتركيب جسمه وأطرافه، بل في إنطباعاته (انطباعات يديه ورجليه) وبصمات أصابعه [(١)].

وهذا ما رعاه النبي (ﷺ) في أصحابه والمخاطبين، فصدرت تكليفاته وتوجيهاته لهم، فخصص بعضهم بأعمال معينة وفق هذه القدرات والإمكانات، ووفقا لصفاتهم، وكلف كلا منهم بما يراه مناسبا له حسب طاقاته، وقدراته، ومواهبه، ولذلك اشتهر بعض الصحابة بأخبار معينة كحذيفة بن اليمان، فقد أسر إليه النبي (ﷺ) إليه بأسماء المنافقين، ولم يُطْلع عليهم أحدا غيره، وبذلك كان يقال لحذيفة: أنه صاحب السر الذي لا يعلمه غيره، ولم يكن عمر، ولا غيره يعلم أسماءهم، وكان إذا مات الرجل وشكوا فيه، يقول عمر: انظروا، فإن صلى عليه حذيفة، وإلا فهو منافق[(٢)].

---

(١) ينظر: أساليب التربية النبوية للجند من خلال غزوات الرسول (ﷺ) وتطبيقاتها المعاصرة، مشعل بن سيف الجعيد: ١٤٢ وهامش ١٦٦، رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة أم القرى١٤١٨م.

(٢) ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي: ٤٩٤/٣، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي . بيروت، ط: الثانية١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، و شرح الإلمام بأحاديث الأحكام، ابن دقيق العيد: ٣٥٧/٢، تح: محمد خلوف العبد الله، دار النوادر- سوريا، ط: الثانية١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

وكان (ﷺ) يعرف المنافقين بسيماهم، فلا يخطئ واحدا منهم، لأن الرسول (ﷺ) علمه كيف يعرفهم، فقد ورد أن علقمة الكوفي ذهب إلى الشام، فلما دخل المسجد، قال: اللهم يسر لي جليسا صالحا، فجلس إلى أبي الدرداء، فقال أبو الدرداء: فمن أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أليس فيكم أو منكم صاحب السر الذي لا يعلمه غيره، يعني حذيفة، قال: قلت: بلى... "[1]، والمراد بـ (صاحب السر)" أي سر النفاق، وهو أنه (ﷺ) ذكر أسماء المنافقين، وعينهم لحذيفة، وخصه بهذه المنقبة إذ لم يطلع عليها غيره "[2].

ولذا كان حذيفة بن اليمان صاحب السر الذي لا يعلمه غيره، وإنما خصه الرسول (ﷺ) بمعرفة أسماء المنافقين واختاره؛ لثقته فيه، وقدرته على حفظ سر رسول الله في حياته وبعد موته.

كما راعى الرسول (ﷺ) في سيدنا علي (ﷺ) قدراته وطاقاته، ومواهبه حين كلفه بالمواقف الشجاعة ذات الخبرة، وقد اجتمعت قريش في دار الندوة، وأجمعوا علي قتله (ﷺ)، والتخلص منه، فأوحى الله تعالى لنبيه (ﷺ)، فأمر عليا بن أبي طالب أن ينام في فراشه تلك الليلة.

وهكذا اختار النبي (ﷺ) لهذه المهمة الشاقة التي تحيطها المخاطر سيدنا علي (كرم الله وجهه)، وهي مهمة صعبة لا ينبري لها سوى الأبطال المغاوير، فمن يجرؤ على البقاء في فراش رسول اللَّه (ﷺ) والأعداء قد أحاطوا بالبيت يتربصون به ليقتلوه؟ من يفعل هذا وهو يعلم أن الأعداء لن يفرقوا بينه وبين رسول اللَّه (ﷺ) في مضجعه؟ فتصدى لها وهو يعلم حجم المخاطر المحدقة به، إذ ربما قتله الأعداء ظنا منهم أنه رسول الله (ﷺ)، ومن هنا كان تكليفه (ﷺ) لعلي (كرم الله وجهه) بهذه المغامرة؛ لمعرفته به عن كثب، وعلمه بمواهبه وقدراته، وحبه له، فضلا عن شجاعته النادرة وحنكته، ومن ثم مناسبته لهذه المهمة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب (المناقب)، باب (مناقب عمار وحذيفة)، رقم (٣٥٣٣).

(٢) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرماني: ١٠٩/٢٢، داراحياء التراث العربي . بيروت، ط: ثانية١٤٠١هـ-١٩٨١م.

كما كان تكليفه (ﷺ) لعلي (رضي الله عنه) أن يقيم بمكة أياما حتي يؤدي الأمانات والودائع والوصايا التي كانت عنده (ﷺ) إلى أصحابها – من أعدائه من المشركين – كاملة غير منقوصة[1]، نابعا من ثقته في قدراته وخبراته وحنكته، ومعرفته بأصحاب الودائع والأمانات؛ لقرابته بالرسول (ﷺ) وقربه الدائم له في ذلك الوقت، وقدرته على القيام بالمهمة على أكمل وجه.

ومن رعايته (ﷺ) للتميز الفردي اختياره لحذيفة بن اليمان (رضي الله عنه)، وتخصيصه بأخبار الفتن، وكأنه (ﷺ) خصصه بهذه المهمة لما عرفه عنه من شغفه بمعرفة الفتن وأخبارها، وفي هذا ما يفسر روايته (رضي الله عنه) الكثير من الأحاديث في الفتن، وفي ذلك يقول حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ(رضي الله عنه): "وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّاسَ بِكُلِّ فِتْنَةٍ هِيَ كَائِنَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَمَا بِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) أَسَرَّ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ شَيْئًا لَمْ يُحَدِّثْهُ غَيْرِي، وَلَكِنْ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ مَجْلِسًا أَنَا فِيهِ عَنِ الْفِتَنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) وَهُوَ يَعُدُّ الْفِتَنَ: مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ لَا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شَيْئًا، وَمِنْهُنَّ فِتَنٌ كَرِيَاحِ الصَّيْفِ مِنْهَا صِغَارٌ وَمِنْهَا كِبَارٌ "قَالَ حُذَيْفَةُ: فَذَهَبَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ كُلُّهُمْ غَيْرِي [2].

ومن هنا كان حذيفة صاحب السر الذي لا يعلمه إلا هو، حتى خص بأسماء المنافقين، وبكثير من الأمور، وعليه فينبغي أن يُعلم التلميذ ما يكون راغبا فيه من أنواع العلوم المباحة فهو أجدر أن يسرع إلى تفهمه والقيام به، فضلا عما فيه من بيان حكمة الله في عباده، كيف أقام كلًّا منهم فيما شاء، فحبّب إلى أكثر الصحابة السؤال

(١) ينظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٣٤، دار ابن حزم للطباعة والنشر(بيروت . لبنان)، ط: أولى ١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب (الفتن وأشراط الساعة)، باب (إخبار النبي فيما يكون إلى قيام الساعة)، رقم(٢٨٩١).

عـن وجـوه الخيـر؛ ليعملـوا بهـا، ويبلّغوهـا غيـرهم، وحبّـب لحذيفـة السـؤال عـن الشـر؛ ليجتنبه، ويكون سببًا في دفعه عمن أراد الله له النجاة [1].

كما اختار الرسول (ﷺ) حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) ليدخل في صفوف الأعداء، ويأتي بخبر القوم، وقد خصه (ﷺ) دون غيره من الصحابة الكثيرين؛ لما يعلمه (ﷺ) عن حذيفة من الجسارة النادرة، والدقة في تنفيذ الأوامر، فضلا عن أنه لبق ذكي خفيف الحركة، سريع التخلص من المآزق الحرجة، كما كان يتحلى بالانضباط العسكري، إذ إنه ظفر بأبي سفيان، وكان يستطيع قتله إلا أنه التزم بما أمره به رسول الله(ﷺ).. فعن إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَاتَلْتُ مَعَهُ فَأَبْلَيْتُ. فَقَالَ حُذَيْفَةُ: " أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟! لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) لَيْلَةَ الأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْمِ؟ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ! فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ؟ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ. فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ القِيَامَةِ. فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. فَقَالَ: قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ القَوْمِ. فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ القَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ. فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ القَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ): لَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ. وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَ القَوْمِ وَفَرَغْتُ

(١) ينظر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، محمد بن علي الإتيوبي: ١٦٤/٣٢، دار ابن الجوزي، ط: الأولى١٤٢٦هـ .٢٠٠٥م.

قُرِرتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مِن فَضلِ عَبَاءَةٍ كَانَت عَلَيهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَـم أَزَل نَائِمًا حَتَّى أَصبَحتُ، فَلَمَّا أَصبَحتُ قَالَ: قُـم يَا نَومَانُ "[1].

وكما نري فقد" كان اختيار حذيفة بن اليمان لهذه المهمة الشاقة والخطيرة، وفي ذلك الجو المتأزم، شديد البلاء، عظيم المحن، والذي كادت تميل فيه نفوس الصحابة إلى ما لم يكن من أخلاقها كان اختيارا عن علم من رسول الله (ﷺ) بقدرات ومواهب حذيفة (ﷺ)، فقد اجتمعت فيه صفات الفدائي المغامر العليم بمهمته.

ودخل بين الأحزاب في شدة الظلام، وشدة البرد دخول الفدائي الذي تكتنفه المخاطر من جميع الجهات، وهو لا يبالي، فكان ثابت اليقين، راسخ الإيمان، زكي الفؤاد، متماسك الشخصية، خبيرا بتصرف الأمور إذا تأزمت، سريع البادرة، حاذق الرأي، وهذه هي الصفات الذي يجب أن تتوافر في الأفراد والجماعات الذين يكونون في موضع الثقة الخاصة للقيادة عند اشتداد الأزمات، واستحكام الأخطار"[2].

ولهذا كان حذيفة (ﷺ) مستودعا لسر رسول الله (ﷺ)، وموضع ثقته، وكان ذلك سببا في تكليفه ببعض المهام، وتعليمه بعض الأمور التي تناسب حاله، تأكيدا علي معرفته (ﷺ) بمعادن الرجال وقدراتهم ومواهبهم.

كما اختار الرسول (ﷺ) معاذا بن جبل (ﷺ) وخصصه بخبر" من لقى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة "[3]، وإنما خص الرسول (ﷺ) معاذا بذلك؛ لعلمه بدقة فهمه للأمر، ومقدرته على كتمان السر، فعن أنس (ﷺ) قال: " ذُكر لي أن النبي (ﷺ) قال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب(الجهاد والسير)، باب (غزوة الأحزاب)، رقم(١٧٨٨).

(٢) محمد رسول الله (ﷺ)(منهج ورسالة . بحث وتحقيق)، لمحمد الصادق إبراهيم عرجون: ٤/ ١٩٧بتصرف، دار القلم . دمشق، ط: ثانية ١٤١٥هـ .١٩٩٥م.

(٣) من صفات الداعية معرفة أحوال المخاطبين في ضوء الكتاب والسنة وسير الصالحين، د. فضل إلهي: ٦٣ مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض، ط: أولى ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

لمعاذ(ﷺ): "من لقى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة"، قال: ألا أبشر به الناس؟ قال: "لا، إني أخاف أن يتكلوا" [1].

هنا أخبر النبي (ﷺ) معاذا ومنعه من نقل الخبر، مراعاة لحال معاذ (ﷺ) وثقة في فهمه، وأن مثل هذا الأمر لا يشتبه على مثله، وفي الوقت ذاته فقد راعى حال الناس وخاصة العامة، فأمره بكتمان البشارة خوفا من اشتباه الأمر عليهم وسوء التأويل، وحتى لا يعودهم على تتبع الرخص، وترك العزيمة فيما تحقق لهم فيه همة ونشاطا؛ لأنه من الأسرار الإلهية، التي لا يجوز كشفها إلَّا للخواص، ولهذا أخبر به (ﷺ) من يأمن عليه الاتكال، وسلك معاذ ذلك، فلم يخبر به إلا من رآه أهلًا لذلك، ولا يبعد أن نداءه معاذًا ثلاث مرات كان للتوقف في إفشاء هذا السر عليه أيضًا، ولذا قيل فيه: أنه يجب أن يخص بالعلم قوما فيهم الضبط وصحة الفهم، ولا يبذل المعنى اللطيف لمن لم يستأهله من الطلبة، ومن يخاف عليه الترخص والاتكال لتقصير فهمه، فلا يوضع العلم إلا عند من يستحقه ويفهمه [2].

كما راعى في تكليفه بالمهام الحربية ذوي الخبرة والمهارة في هذا الباب.. وكان ميدان الحروب والغزوات من أهم الميادين التي راعي فيها الرسول (ﷺ) حال المخاطب، فكان يفرق بين جنده في توزيع المهام عليهم، وكان لا يجيز الصغير في الاكتتاب في الغزوات، كما كان لا يكلف الضعيف بالمبارزة والنزال في بداية المعركة، وكان يراعي ما

(١)صحيح البخاري،كتاب (العلم)، باب(من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا)،ح(١٢٩).

(٢) ينظر: منحة الباري بشرح صحيح البخاري: ٣٨٥/١، و شرح صحيح البخارى لابن بطال: ٢٠٧/١، تح: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد (لسعودية، الرياض)، ط: الثانية١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

يظهر لـه من فروق فرديـة تميز بعضـهم عن بعض، فيضـع الرجل المناسب فـي المكـان المناسب بقدر ما يتبين له من استعدادات ومهارات(١).

فكـان (ﷺ) يستعمل خالـد بـن الوليـد وعمـرو بـن العـاص علـى الحـرب منـذ أسـلما، ويقدمهما على كثير ممن كانوا أسبق منهما إسلاما.. فعن عمرو بن العاص (ﷺ)، قال: "مَا عَدَلَ بِي رَسُولُ اللهِ (ﷺ)، وَبِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ مُنْذُ أَسْلَمْنَا فِي حربه" (٢).

وفي غزوة بدر في تاريخ الطبري: "قَالَ: ثُمَّ خرج بعده عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، بَيْنَ أَخِيهِ شَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَابْنِهِ الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، حَتَّى إِذَا فَصَلَ مِنَ الصَّفِّ دَعَا إِلَى الْمُبَارَزَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ فِتْيَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ثَلَاثَةٌ، وَهُمْ: عَوْفٌ، وَمُعَوِّذٌ، ابْنَا الْحَارِثِ- وَأُمُّهُمَا عَفْرَاءُ- وَرَجُلٌ آخَرُ، يُقَالُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: رَهْطٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالُوا: مَا لَنَا بِكُمْ مِنْ حَاجَةٍ. ثُمَّ نَادَى مُنَادِيهِمْ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنَا عَنْ قَوْمِنَا، فَقَالَ (ﷺ): قُمْ يَا عُبَيْدَةُ بْنَ الْحَارِثِ، وَقُمْ يَا حَمْزَةُ، وَقُمْ يَا عَلِيُّ، فَلَمَّا قَامُوا وَدَنَوْا مِنْهُمْ، قَالُوا: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالَ عُبَيْدَةُ: عُبَيْدَةُ، وَقَالَ حَمْزَةُ: حَمْزَةُ، وَقَالَ عَلِيٌّ: عَلِيٌّ، قَالُوا: نَعَمْ، أَكْفَاءٌ كِرَامٌ..."(٣) .. وهنا راعى القائد الحكيم الفروق الفردية في جنده عند اختياره من يبارز هؤلاء الأعداء الذين عرف عنهم تفردهم في القوة والشجاعة، فاختار لهم من أقرانهم من يفوق قوتهم وشجاعتهم.

كما راعى (ﷺ) في التكليف بالمهام البيانية، والحرب الكلامية، والرد على المناوئين للإسلام أصحاب الخبرة والمهارة، كحسان بن ثابت، وخاصة أن له مهارته وتفوقه في

(١) ينظر: أساليب التربية النبوية للجند من خلال غزوات الرسول (ﷺ): ١٤٢.

(٢) المستدرك على الصحيحين ، للحاكم ،كتاب (معرفة الصحابة) باب (ذكر مناقب عمرو بن العاص)،رقم (٥٩١٧)، وينظر : تاريخ دمشق، لابن عساكر: ١٤١/٤٦، تح: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع١٤١٥هـ - ١٩٩٥م،

(٣) سنن أبي داود، كتاب (الجهاد)، باب(في المبارزة)، رقم(٢٦٦٥)، والسيرة النبوية لابن هشام، تح: مصطفى السقا وغيره، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ،ط: الثانية١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

شعرالمدح والهجاء، وكثيرا ما فخر حسان بن ثابت بانتصارات الخزرج وهجا الأوس، ودخل في سجالات مع شعرائهم، واتصل بملوك الغساسنة ونظم في مدحهم الكثير، حتى صار شاعر يثرب الأول، ولذا خصه الرسول (ﷺ) بقوله: "اهجُ قُرَيْشًا؛ فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِن رَشْقٍ بِالنَّبْلِ! "(١)، وبقوله: "اهجهم، أوهاجهم وجبريل معك" (٢)، قَالَتْ عَائِشَةُ (ﷺ) سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) يَقُولُ لِحَسَّانَ: "إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ (ﷺ)" (٣)؛ لأنه تعلم أنساب العرب، وعرف مواطن الداء، فكان أقدر على هجائهم ومناظرتهم.

وقد أورد النسائي في سننه عن عائشة (ﷺ)، أنه (ﷺ) قَالَ: "اهجُ قُرَيْشًا؛ فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِن رَشْقٍ بِالنَّبْلِ! فَأَرسَلَ إِلَى ابنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ: اهجُهُم! فَهَجَاهُم فَلَم يُرض، فَأَرسَلَ إِلَى كَعبِ بنِ مَالِكٍ، ثُمَّ أَرسَلَ إِلَى حَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيهِ قَالَ حَسَّانُ: قَد آنَ لَكُم أَن تُرسِلُوا إِلَى هَذَا الأَسَدِ الضَّارِبِ بِذَنَبِهِ! ثُمَّ أَدلَعَ لِسَانَهُ، ثم جَعَلَ يُحَرِّكُهُ فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَأَفرِيَنَّهُم بِلِسَانِي فَريَ الأَدِيمِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): لَا تَعجَل، فَإِنَّ أَبَا بَكرٍ أَعلَمُ قُرَيشٍ بِأَنسَابِهَا، وَإِنَّ لِي فِيهِم نَسَبًا حَتَّى يُلَخِّصَ لَكَ نَسَبِي! فَأَتَاهُ حَسَّانُ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَد لَخَّصَ لِي نَسَبَكَ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَأَسُلَّنَّكَ مِنهُم كَمَا تُسَلُّ الشَّعرَةُ مِنَ العَجِينِ"(٤).

يقول الإمام ابن سيرين: "كان شعراء رسول الله (ﷺ): عبد الله بن رواحه، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك... فكان حسان وكعب يعارضان المشركين بمثل قولهم بالوقائع

(١) أخرجه مسلم في كتاب (فضائل الصحابة)، باب (فضائل حسان بن ثابت ﷺ)، (٢٤٩٠).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق)، باب (ذكر الملائكة)،رقم (٣٠٤١).
(٣)أخرجه مسلم في كتاب (فضائل الصحابة)، باب (فضائل حسان بن ثابت ﷺ)، (٢٤٩٠).
(٤) أخرجه مسلم في كتاب (فضائل الصحابة)، باب (فضائل حسان ين ثابت)، رقم(٢٤٩٠) .

والأيام والمآثر، وكان ابن رواحة يعيرهم بالكفر، وينسبهم إليه، فلما أسلموا وفقهوا، كان أشد عليهم" (١).

وعلى هذا النحو كان الرسول (ﷺ) يراعي حال المخاطب، ويفيد من إمكاناته ومواهبه وقدراته، ويكلف كلا بما يجيد ويحسن، لا من يطاب ويريد، فكان (ﷺ) شديد الحذر من وضع الأمور في غير نصابها، فكان يمنح العمل لمن وجده كفئا له، وأهلا للقيام به، ولذا نهى أبا ذر عن تولي الإمارة، ولو في أضعف صورها، وقال له حين طلب الإمارة: "يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي أو ندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى حق الله فيها" (٢).

وإنما نهى أبا ذر (ﷺ)؛ لمعرفته بقدرته وإمكاناته التي لا تسعفه في مباشرة هذا العمل، وإشفاقا عليه من الوقوع في الإثم بسبب الإخلال والتقصير فيما أوكل إليه لضعفه... وكذلك مراعاة لحقوق الناس حتى لا تضيع بولاية من ليست عنده القدرة على القيام بتلك المهمة "(٣).

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، تح: الشيخ شعيب الأرناؤوط وغيره، مؤسسة الرسالة، ط: الثالثة١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب(الإمارة)، باب(كراهة الإمارة بغير ضرورة)، رقم(١٨٢٥).

(٣) معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، د. عبد الوهاب بن لطف الديلمي: ٢/ ١٠٦٥، دار المجتمع . جدة، ط: أولى١٤٠٦هـ.

المطلب السادس:-

تنوع الخطاب النبوي في أجوبته بتنوع حال السائل

معلـوم أن العلـم خـزائن، ومفاتحهـا فـي السـؤال؛ لهـذا كـان الصـحابة (ﷺ) يسـألون الرسول(ﷺ)عما يُشكل عليهم، ولذا كثرت إجابات النبي (ﷺ)، وتنوعت في أحايين كثيرة علي الرغم من كون السؤال واحد، دون أن يكون في ذلك تعارض، وإنما هو من باب فهم طبائع السائلين، فكان الرسول (ﷺ) يراعي في إجاباته أحوال السائلين والمستفتين، فيجيب كل سائل وكل مستفت بما يناسبه.. كما كان يطيل إجابته (ﷺ) علي بعض السائلين، ويوجزها لغيرهم، وكان حكيما في إجابته، يجيب السائل بأكثر مما سأل مراعاة لحاله، أو يوجه السائل إلى الأنفع له في دينه ودنياه، ويرشده إلى الأهم، فأحيانا يكون هناك ما هو أهم من سؤاله الذي يسأل عنه.

فقد يتنوع السائل ويتحد السؤال، بأن يسأل السؤال الواحد أكثر من شخص، وتتنوع إجاباته (ﷺ) علي حسب تنوع أحوال السائلين، ومن ذلك ما رواه عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ (ﷺ) فَجَاءَ شَابٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُقَبِّلُ وَأَنَا صَائِمٌ؟ فَقَالَ: " لَا "، فَجَاءَ شَيْخٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أُقَبِّلُ وَأَنَا صَائِمٌ؟ قَالَ: " نَعَمْ "، فَنَظَرَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): " قد عَلِمْتُ نَظَرَ بَعْضِكُمْ إِلَى بَعْضٍ، إِنَّ الشَّيْخَ يَمْلِكُ نَفْسَهُ "[1].

فالرسول (ﷺ)كان يتخذ لكل حال ما يلابسها ويناسبها، فقد تختلف إجابته علي سؤال واحد تبعا لتباين أحوال السائلين، ومن ذلك أن يأتي رجل يسأل رسول الله عن حكم شرعي ويأتي آخر فيسأله عن نفس الحكم، فيجيب كلا منهم بجواب مختلف، كأن يرخص لأحدهما ما ينهي عنه الآخر؛ نظرا لاختلاف حال كل منهما[2].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، في مسند المكثرين من الصحابة، رقم(٧٠٥٤).

(٢) ينظر: مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين، د. نافذ حسين حماد: ٣٦، دار الوفاء ـ القاهرة، ط: أولى١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

فـاختلاف الإجابـة وتنوعهـا هنـا مصـدره اخـتلاف حـال السـائلَين، ومعرفتـه (ﷺ) بخصائص كل منهما، فأذن للشيخ في التقبيل بينما نهى عنه الشاب، للدلالة على أنه لا يجوز التقبيل لمن خشى أن تغلبه شهوته، وكان مظنة عدم ملكه لنفسه عند التقبيل.

ومـن اخـتلاف الأجوبـة وتباينهـا علـى حسـب اخـتلاف أحـوال السـائلين، مـع أن المسئول عنه واحد إجابة النبي (ﷺ) عن أفضل الأعمال، من ذلك ما رواه أبو هريرة (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) سئل: أي العمل أفضل: قال" إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: "الجهاد في سبيل الله"، قيل: ثم ماذا؟ قال "حج مبرور" (١).

وفي رواية أبي أمامة (ﷺ) أنه سأل رسول الله (ﷺ)، أي العمل أفضل؟ قال: "عليك بالصوم فإنه لا عدل له"(٢).. وعن أَبي ذرٍ (ﷺ) قَالَ: قُلْتُ: يَا رسول الله، أيُّ الأعمَالِ أفْضَلُ؟ قَالَ: "الإيمَانُ بالله، وَالجِهَادُ في سَبيلِ الله، قَالَ: قُلْتُ: أيُّ الرِّقَابِ أفْضَلُ؟ قَالَ: "أنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا... "(٣).. وعن أبي مسعود(ﷺ) قال: سأت النبي(ﷺ): أي العمل أفضل؟ قال: " الصلاة لوقتها "، قال: ثم أي؟ قال:" ثم بر الوالدين "، قال: ثم أي؟ قال:" الجهاد في سبيل الله... "(٤).

ورَوَى أبو يعلى عَنْ رَجُلٍ مَنْ خَثْعَمَ قَالَ: "أَتَيْتُ النَّبِيَّ(ﷺ) وَهُوَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقُلْتُ: أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: "نَعَمْ". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: "إِيمَانٌ بِاللَّهِ". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: "ثُمَّ صِلَةُ الرَّحِمِ". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: "ثُمَّ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ... " (٥).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب (الإيمان)، باب (من قال أن الإيمان هو العمل)، رقم (٢٦).

(٢) سنن النسائي، كتاب(الصيام)، باب(ذكر الاختلاف على ابن أبي يعقوب في حديث أبي أمامة في فضل الصائم)، رقم(٢٢٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب (العتق)، باب(أي الرقاب أفضل)، رقم(٢٥١٨)، والنووي في رياض الصالحين، كتاب(الجهاد)، باب(فضل العتق)، رقم(١٣٥٩)، تح: د. ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير (دمشق . بيروت)، ط: الأولى١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب (الإيمان)، باب(بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال)، رقم(٨٥).

(٥) مسند أبي يعلى الموصلي، لأحمد بن علي المثنى التميمي:٢٣٦/٩،تح:سعيد بن محمد السناري، دار الحديث . القاهرة،ط:أولى١٤٣٤هـ . ٢٠١٣م.

تُبين هذه الأجوبة النبوية مراتب الأعمال في الفضل، فكلما كان العمل أفضل كان إلى الله تعالي أحب، وعلي الرغم من اتحاد السؤال في هذه الأحاديث النبوية الشريفة، وأنه يدور حول أفضل الأعمال، إلا أن إجابته (ﷺ) علي هذا السؤال أتت متنوعة ومختلفة، والخلاف راجع إلى حال السائل؛ لأنه (ﷺ) يعلم من حاله أن الأفضل في حقه كذا دون كذا.

فقد أجاب النبي (ﷺ) بما رآه في حقه أو في حين سؤاله أفضل وأهم نظرا إلى حاجته وظروفه.. فاختلفت أجوبة النبي (ﷺ) باختلاف الأحوال أو باختلاف الأشخاص.. فمن الأشخاص من يكون الصيام أفضل له، ومنهم من يكون الجهاد أفضل في حقه بحسب الحال، وحسب استعداد الشخص وقدرته.. وقد يكون الجهاد في وقت أفضل الأعمال، وقد يكون في وقت آخر غيرُهُ أفضل منه.

يقول ابن حجر: "وَمُحَصِّلُ مَا أَجَابَ بِهِ الْعُلَمَاءُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ مِمَّا اخْتَلَفَتْ فِيهِ الْأَجْوِبَةُ بِأَنَّهُ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَنَّ الْجَوَابَ اخْتَلَفَ لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ السَّائِلِينَ بِأَنْ أَعْلَمَ كُلَّ قَوْمٍ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ أَوْ بِمَا لَهُمْ فِيهِ رَغْبَةٌ أَوْ بِمَا هُوَ لَائِقٌ بِهِمْ أَوْ كَانَ الِاخْتِلَافُ بِاخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ بِأَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَفْضَلَ مِنْهُ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ كَانَ الْجِهَادُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِأَنَّهُ الْوَسِيلَةُ إِلَى الْقِيَامِ بِهَا وَالتَّمَكُّنِ من أَدَائِهَا، وَقَدْ تَضَافَرَتِ النُّصُوصُ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ وَمَعَ ذَلِكَ فَفِي وَقْتٍ مُوَاسَاةِ الْمُضْطَرِّ تكون الصدقة أفضل... وَقَالَ بن دَقِيقِ الْعِيدِ الْأَعْمَالُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْبَدَنِيَّةِ وَأَرَادَ بِذَلِكَ الِاحْتِرَازَ عَنِ الْإِيمَانِ لِأَنَّهُ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ فَلَا تَعَارُضَ حِينَئِذٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ إِيمَانٌ بِاللَّهِ الْحَدِيثَ وَقَالَ غَيْرُهُ الْمُرَادُ بِالْجِهَادِ هُنَا مَا لَيْسَ بِفَرْضِ عَيْنٍ لِأَنَّهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى إِذْنِ الْوَالِدَيْنِ فَيَكُونُ بِرُّهُمَا مُقَدَّمًا عَلَيْهِ.." (١).

وقال أبو بكر الأوزاعي: "قد يكون العمل المعين أفضل من غيره في حق غيره، فالغني الذي ليس له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شيئ منه، فصدقته وإيثاره أفضل

(١) فتح الباري: ٩/٢.

لـه مـن قيـام الليـل وصيـام النهـار نافلـة، والشـجاع الشـديد الـذي يخشـى العدو سـطوته، وقوفه فـي الصف ساعة، وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع، والعالم الـذي قـد عرف السنة، والحـلال والحـرام، وطـرق الخيـر والشـر، مخالطتـه للنـاس وتعليمهم ونصحهم فـي دينهم أفضل مـن اعتزالـه وتفريـغ وقتـه للصـلاة وقـراءة القـرآن والتسـبيح... ومـن غلبـت عليـه شـهوة النسـاء فصـومه لـه أنفـع وأفضـل مـن ذِكْـرِ غَيْـره وصدقته" (١).

فعلـي الـرغم مـن اتحـاد السـؤال إلا أن أجوبتـه (ﷺ) علـي السـائلين تعـددت وتنوعـت، مراعاة لأحوال السائلين، بين ذلك القاضي عياض في قوله: "أعلم كل قوم بِمَا لَهُم إِلَيْهِ حَاجَة، وَترك مَا لم تَدعهُمْ إِلَيْهِ حَاجَة، أَو ترك مَا تقدم علم السَّائِل إِلَيْهِ أَو علمه بِمَا لم يكمله من دعائم الْإِسْلَام وَلَا بلغه عمله، وَقد يكون للمتأهل للْجِهَاد الْجِهَاد فِي حَقه أولى من الصَّلَاة وَغَيرهَا، وَقد يكون لَهُ أَبَوَانِ لَو تَركهمَا لضاعا، فَيكون برهما أفضل، لقَوْله، (ﷺ): (ففيهما فَجَاهد)، وَقد يكون الْجِهَاد أفضل من سَائِر الْأَعْمَال عِنْد اسْتِيلَاء الْكفَّار على بِلَاد الْمُسلمين"(٢).

وعن عبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: "أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللهِ (ﷺ) فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ، أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللهِ قَالَ: فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ بَلْ كِلَاهُمَا. قَالَ: فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا" (٣).

فعلـي الـرغم ممـا عُـرف عـن النبـي (ﷺ) مـن الحـض علـى الجهـاد والهجـرة وكثـرة الترغيب فيهما، إلا أنـه لاحظ حال السائل هنا بخصوصه، فرأي بر الوالدين أهم وأفضل فـي حقـه من الجهاد، ولذا اختلفت أجوبـة النبـي (ﷺ) لاختلاف أحوال السائلين وظروفهم

(١) عدة الصابرين وزخيرة الشاكرين، محمد بن أبي بكر الزرعي: ٩٣، تح/ زكريا على يوسف، دار الكتب العلمية . بيروت، (دون).

(٢) عمدة القاري: ١/١٨٩.

(٣) أخرجـه مسـلم فـي كتـاب(البر والصـلة والآداب)، باب(تقـديم بـر الوالـدين علـى التطـوع بالصـلاة وغيرها)، رقم(٢٥٤٩).

وقدراتهم، فقد أجاب السائل بما رآه في حقه، أو في حين سؤاله أفضل.. جعل النبي (ﷺ) في حديث أبي هريرة (ﷺ): أن أفضل الأعمال الإيمان بالله ثم الجهاد ثم الحج، وفي حديث أبي ذر (ﷺ) الإيمان والجهاد، وفي حديث ابن مسعود (ﷺ): الصلاة ثم بر الوالدين، ثم الجهاد.

وذكر النووي أن الإمام أبا بكر القضاة الشاشي جمع بين تلك الأحاديث بقوله: "إن ذلك اختلاف جواب جرى على حسب اختلاف الأحوال والأشخاص؛ فإنه قد يقال خير الأشياء كذا، ولا يراد به خير جميع الأشياء من جميع الوجوه، وفي جميع الأحوال والأشخاص، بل في حال دون حال أو نحو ذلك، واستشهد في ذلك بأخبار منه: عن ابن عباس (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) قال: " حجة لمن لم يحج أفضل من أربعين غزوة، وغزوة لمن لم يحج أفضل من أربعين حجة "[1].

وفي تقديم الجهاد على الحج يقول القاضي عياض: " لأنه كان أول الإسلام ومحاربة أعدائه والجد في إظهاره... والصحيح أنه محمول على الجهاد في وقت الزحف الملجئ والنفير العام فإنه حينئذ يجب الجهاد على الجميع وإذا كان هكذا فالجهاد أولى بالتحريض من الحج؛ لما في الجهاد من المصلحة العامة للمسلمين مع أنه متعين متضيق في هذا الحال بخلاف الحج "[2].

ومن ثم فـ" الْحَاصِل أَن اخْتِلَاف الْأَجْوِبَة، فِي هَذِه الْأَحَادِيث لاخْتِلَاف الْأَحْوَال، وَلِهَذَا سقط ذكر الصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام فِي هَذَا الحَدِيث الْمَذْكُور فِي هَذَا الْبَاب، وَلَا شكّ أَن الثَّلَاث مُقَدمَات على الْحَج وَالْجهَاد، يُقَال: إِنَّه قد يُقَال: خير الْأَشْيَاء كَذَا، وَلَا يُرَاد أَنه خير من جَمِيع الْوُجُوه فِي جَمِيع الْأَحْوَال والاشخاص، بل فِي حَال دون حَال، فَإِن قيل: كَيفَ قدم الْجِهَاد على الْحَج، مَعَ أَن الْحَج من أَرْكَان الاسلام، وَالْجهَاد فرض كِفَايَة؟ يُقَال: إِنَّمَا قدمه للاحتياج إِلَيْهِ أول الْإِسْلَام، ومحاربة الْأَعْدَاء، وَيُقَال: إِن الْجِهَاد قد يتَعَيَّن كَسَائِر فروض الْكِفَايَة، وَإِذا لم يتَعَيَّن لم يَقع إِلاَّ فرض كِفَايَة، وَأما الْحَج فَالْوَاجِب

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ٢٦٠.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ٢٦٠-٢٦١.

مِنْهُ حجَّة وَاحِدَة، وَمَا زَاد نفل فَإِن قابلت وَاجِب الْحَج بمتعيّن الْجِهَاد، كَانَ الْجِهَاد أفضل لهَذَا الحَدِيث، وَلِأَنَّهُ شَارك الْحَج فِي الْفَرْضِيَّة، وَزَاد بِكَوْنِهِ نفعا مُتَعَدِّيا إِلَى سَائِر الْأمة، وبكونه ذبا عَن بَيْضَة الْإِسْلَام "(١).

ومما اتحد فيه السؤال وتنوعت الإجابة، السؤال عن خير خصال الإسلام فيما رواه عبد الله بن عمر (ﷺ) أن رجلا سأل النبي (ﷺ) أي الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف" (٢).

وفي حديث أبي موسى (ﷺ) قال: قالوا: يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: "من سلم المسلمون من لسانه ويده" (٣).

وقع اختلاف الجواب في خير المسلمين لاختلاف حال السائلين والحاضرين، فكان في أحد الموضعين الحاجة إلى إفشاء السلام وإطعام الطعام أكثر وأهم، لما حصل من إهمالهما والتساهل في أمورهما، ونحو ذلك، وفي الموضع الآخر كانت الحاجة إلى الكف عن إيذاء المسلمين، وَخَصَّ هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ بِالذِّكْرِ لِمَسِيسِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لِمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ وَلِمَصْلَحَةِ التَّأْلِيفِ، وَيَدُلُّ عَلَيه أَنَّهُ(ﷺ)حَثَّ عَلَيْهِمَا أَوَّلَ مَا دَخَلَ الْمَدِينَةَ، وبذل السلام يتضمن مكارم الأخلاق، والتواضع، ويحصل به التآلف والتحاب(٤).

وهذا صحابي جليل يسأل النبي (ﷺ) الهجرة، فأجابه بما يلائم حاله، فقد رُوي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (ﷺ) أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: وَيْحَكَ إِنَّ شَأْنَ الْهِجْرَةِ شَدِيدٌ، فَهَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ تُؤَدِّي صَدَقَتَهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاعْمَلْ مِنْ وَرَاءِ الْبِحَارِ، فَإِنَّ اللهَ لَنْ يَتِرَكَ مِنْ عَمَلِكَ شَيْئًا "(٥).

---

(١) عمدة القاري: ١/ ١٨٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب (الإيمان)، باب (إطعام الطعام من الإسلام)، رقم (١٢).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب(الإيمان)، باب(بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل)، رقم(٤٢).

(٤) ينظر: فتح الباري: ٦٦/١.

(٥) صحيح البخاري، كتاب (الأدب)، باب (ما جاء في قول الرجل ويلك)، رقم (٦١٦٥).

فعلي الرغم من قيمة الهجرة وأثرها في تقوية شوكة المسلمين ومؤازرة النبي الكريم، وتعبئة طاقة المسلمين، وحرمان الكفار من هذه الطاقات، بحيث تؤتي ثمارها في خدمة الإسلام، إلا أن الرسول (ﷺ) راعي حال السائل في إجابته عليه، وخشى عليه أنه قد لا يطيق الهجرة فيتراجع بعدها، وفي ترك الهجرة بعد القيام بها من الكبائر ما فيه[١]، إذ" المراد بالهجرة التي سأل عنها هذا الأعرابي ملازمة المدينة مع النبي (ﷺ) وترك أهله ووطنه، فخاف عليه النبي (ﷺ) ألا يقوى لها، ولا يقوم بحقها، وأن ينقص علي عقبيه، فقال له: إن شأن الهجرة التي سألت عنها لشديد، ولكن اعمل بالخير في وطنك وحيث كنت، فهو ينفعك ولا ينقصك الله منه شيئ"[٢].

فالنبي (ﷺ) لاحظ أن هذا الأعرابي لن يطيق الهجرة، فأجابه بما يناسب حاله، وربما سأل الأعرابي ذلك بعد فتح مكة، لأن الهجرة كانت واجبة قبل فتح مكة، وصارت مستحبة بعده.

وقد يجيب الرسول (ﷺ) السائل بأكثر مما سأل، مراعاة لحاله، نجد ذلك في السائل الذي سأل النبي (ﷺ) عن طهورية ماء البحر، فيجيبه بها، ويزيده حل ميتته، وذلك في رواية أبي هريرة أن رجلا سأل النبي (ﷺ) فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ من ماء البحر، فقال رسول الله (ﷺ): " هو الطهور ماؤه، الحل ميتته "[٣].

ظاهر الجواب، أن يقول الرسول (ﷺ): (نعم)؛ ليقرن الحكم بعلته، وهي الطهورية، ولكنه زاد في جوابه حكما لم يسأل عنه السائل، وهو حل ميتته؛ مراعاة لحال السائل، لا سيما وقد ورد أن السائل من الصيادين في البحر[٤].. فلما كان في البحر حيوان قد

(١) أخرجه البخاري في كتاب (الزكاة)، باب (زكاة الإبل)، رقم (١٣٨٤).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ١١/١٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب (الطهارة)، باب (الوضوء بماء البحر)، رقم (٣٨٦).

(٤) ينظر: سنن ابن ماجة، كتاب (الطهارة)، باب(الوضوء بماء البحر)، رقم (٣٨٧)، تح: محمد فؤادعبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية . القاهرة، ط: أولى١٩٥٢م.

يموت فيه والميتة نجس استدعى الأمر أن يوقفه على حكم هذه الميتة.. فمن توقف في طهورية ماء البحر فهو في التوقف في ميتته من باب أولى.. فلما عرف (ﷺ) اشتباه الأمر على السائل في ماء البحر، أشفق أن يشتبه عليه حكم ميتتة، وقد يُبْتَلى به راكب البحر[1]، فـ" العالم والمفتي إذا سئل عن شيء وهو يعلم أن بالسائل حاجة إلى معرفة ما وراءه من الأمور التي يتضمنها مسألته أو تتصل بمسألته كان مستحبا له تعليمه إياه والزيادة في الجواب عن مسألته ولم يكن ذلك عدوانا في القول ولا تكلفا لما لا يَعني من الكلام، ألا تراهم سألوه عن ماء البحر حسب، فأجابهم عن مائه وعن طعامه لعلمه بأنه قد يعوزهم الزاد في البحر كما يعوزهم الماء العذب، فلما جمعتهم الحاجة منهم انتظمهما الجواب منه لهم.

وأيضاً فإن علم طهارة الماء مستفيض عند الخاصة والعامة، وعلم ميتة البحر وكونها حلالا مشكل في الأصل، فلما رأى السائل جاهلا بأظهر الأمرين غير مستبين للحكم فيه علم أن أخفاهما أولاهما بالبيان "[2].

وقد يجيب الرسول (ﷺ) على السائل بغير ما سأل مراعاة لحاله ولما ينبغي أن يهمه ويشغله، كما في سؤال الأعرابي للنبي (ﷺ) عن الساعة فيما رواه أنس أَنَسٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ (ﷺ) عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: "وماذا أعددت لها (. قال: لا شيء، إلا أني أحب اللَّهَ وَرَسُولَهُ (ﷺ)، فَقَالَ: "أنت مع من أحببت" [3].

راعى الرسول (ﷺ) في إجابته حال الأعرابي، فلم يصرح له بعدم علمه بتحديد وقتها، حتى لا يرتاب في أمره، فحدثه بالمعاريض؛ ليلفت نظره إلى بعض القضايا المتصلة بسؤاله، والتي تهمه وينبغي أن يهتم لها، وينشغل بأهميتها، ويهتم بما ينفعه عند قدومها من العقائد الحقة، والأعمال الصالحة.

(١) ينظر: تحفة الأحوزي: ١/ ١٨٨.

(٢) معالم السنن ، للخطابي: ١/ ٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب (مناقب الصحابة)، باب (مناقب عمر بن الخطاب)، رقم (٣٤٨٥).

كما تنوعت إجابته (ﷺ) في الجهاد، فتارة يجعله من أفضل الأعمال ويقدمه على الحج، كما في حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)-السابق- أن رسول الله (ﷺ) سئل: أي العمل أفضل: قال "إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: "الجهاد في سبيل الله"، قيل: ثم ماذا؟ قال" حج مبرور"، وتارة أخري يقدم الحج على الجهاد ويفضله عليه في حديث عائشة (رضي الله عنها) حين سألته (ﷺ) بقولها: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ، أَفَلَا نُجَاهِدُ؟ قَالَ: "لا، لكن أفضل الجهاد حج مبرور" "[1]، وفي رواية : " نعم الجهاد الحج "[2].

وهنا تنوع الخطاب النبوي وتنوعت إجاباته (ﷺ) لتنوع المخاطب، فالخطاب في الأحاديث السابقة كان للرجال، فكان الجهاد لهم أفضل؛ لطبيعتهم، وهم عليه أقدر، لحاجته إلى القوة والصبر والجلد والتحمل.. أما هنا فقد جعل الجهاد مفضولا، وقدم عليه الحج؛ لأنه في حق النساء، فعلي الرغم من أنها لم تسأل عن حكم الجهاد عليهن، إلا أن جوابه (ﷺ) جاء ببيان حكم الجهاد عليهن، وأنه ليس بواجب، وأرشدهن إلى ما هو أولي بهن، وأن جهادهن الحج، فدَلَّ ذلك عَلَى أَنَّ" الْجِهَادَ غَيْرُ وَاجِبٍ عَلَى النِّسَاءِ وَلَكِنْ لَيْسَ فِي قَوْلِهِ جِهَادُكُنَّ الْحَجُّ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُنَّ أَنْ يَتَطَوَّعْنَ بِالْجِهَادِ وَإِنَّمَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِنَّ وَاجِبًا لِمَا فِيهِ مِنْ مُغَايَرَةِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُنَّ مِنَ السِّتْرِ وَمُجَانَبَةِ الرِّجَالِ فَلِذَلِكَ كَانَ الْحَجُّ أَفْضَلَ لَهُنَّ مِنَ الْجِهَادِ "[3].

ومن تنوع جوابه (ﷺ) إيجازا وإطنابا، مع اتحاد السؤال، بتنوع مقتضى الحال، ما روته عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: " أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ (ﷺ): إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَأُرَاهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ أَفَأَتَصَدَّقُ عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ "[4].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب (الحج)، باب (فضل الحج المبرور)، رقم(١٤٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب (الجهاد والسير)، باب (جهاد النساء)، رقم (٢٨٧٥).

(٣) فتح الباري: ٧٦/٦.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب(الأقضية)،باب(صدقة الحي عن الميت)،ح(٢٨١٣)، تح: محمد الأعظمي،مؤسسة زايد بن سلطان(أبو ظبي – الإمارات)،ط:أولى١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .

وحديث أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (ﷺ) قَالَتْ: " قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ (ﷺ)، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ (ﷺ)، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي، قَالَ: نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ"(١).

فالسؤال تقريبا واحد في الحالين؛ لأنه سؤال عن تقديم معروف، سواء الصدقة أو صلة الرحم، غير أن الجواب تنوع . ايجازا وإطنابا . فأجاب الرسول (ﷺ) على الرجل الذي يريد أن يتصدق على أمه بـ (نعم) -إيجازا - دون (تصدق عليها)، بينما أجاب على أسماء بنت أبي بكر بـ (نعم صلي أمك)، دون الاقتصار على (نعم) - إطنابا -، وعلة ذلك، أن الأول سؤال عن وصول صدقة التطوع إلى الميت، لأنها عبادة مالية، وربما تصدق من ماله، أو ربما تصدق بالقليل ، ومن ثم كان الإيجاز بالاقتصار على الجواب بـ(نعم)؛ لظهور الأمر، بخلاف حديث أسماء، فقد أطنب بالنص على (صلي أمك) بعد نعم؛ لغرابة الخبر وعدم توقعه من السائل - كما مر -؛ لأن الكفر مظنة القطيعة والعقوق، ولذا نص على الصلة؛ تأكيدا لأمر البر والصلة، وتأنيسا لنفس الأم الكافرة، واستمالة لها أن تتجه نحو هذا الدين الذي يوصي ببرها وصلتها وحسن معاملتها.

وقد يترك النبي (ﷺ) الجواب مفتوحا؛ ليترك للسائل حرية اختيار الإجابة التي يراها مناسبة لظروفه، ولوضعه فيأخذ بها دون أن يقيده بجواب معين علي سؤاله، ويبدو ذلك واضحا فيما رواه البخاري من أَنَّ حَمْزَةَ بْنَ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ (ﷺ) أَأَصُومُ فِي السَّفَرِ؟ وَكَانَ كَثِيرَ الصِّيَامِ. فَقَالَ: "إِنْ شِئْتَ فَصُمْ وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ"(٢).

وقد يعمد الرسول (ﷺ)إلى الإجابة بالفعل دون القول إذا فهمه المخاطب، ومن ذلك ما رواه البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي (ﷺ) يَعْتَكِفُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ

(١) صحيحة البخاري، كتاب(الهبة وفضلها)، باب (الهدية للمشركين)، رقم (٢٦٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب(الصيام)، باب(التخيير في الصوم والفطر في السفر)، رقم(١١٢١).

مِنْ رَمَضَانَ، فَكُنْتُ أَضْرِبُ لَهُ خِبَاءً، فَيُصَلِّي الصُّبْحَ ثُمَّ يَدْخُلُهُ، فَاسْتَأْذَنَتْ حَفْصَةُ عَائِشَةَ أَنْ تَضْرِبَ خِبَاءً فَأَذِنَتْ لَهَا، فَضَرَبَتْ خِبَاءً، فَلَمَّا رَأَتْهُ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ ضَرَبَتْ خِبَاءً آخَرَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّبِيُّ (ﷺ) رَأَى الْأَخْبِيَةَ، فَقَالَ: "مَا هَذَا؟ "، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ) "الْبِرَّ تُرَوْنَ بِهِنَّ "فَتَرَكَ الِاعْتِكَافَ ذَلِكَ الشَّهْرَ، ثُمَّ اعْتَكَفَ عَشْرًا مِنْ شَوَّالٍ [1].

وفعل النبي (ﷺ) أراد منه أن يفهم زوجاته أن ضرب الأخبية للاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان ليس فرضا، فترك الاعتكاف بنفسه.

وقد يجيب النبي (ﷺ) على السؤال بترك الإجابة، في إشارة واضحة إلى اعتراضه على السؤال وعدم جدواه، ومن ذلك ما روي عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؛ أَنّ النَّبِيَّ (ﷺ) طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ. فَقَالَ: " أَلَا تُصَلُّونَ؟ "فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ. فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا. فَانْصَرَفَ رسول الله (ﷺ) حين قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ. ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ. يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ" وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جدلا "[2]، فالرسول (ﷺ) لم يعجبه قول علي (ﷺ) فترك الرد على رده، وهو أبلغ في الرد والإجابة عليه، رعاية لحاله.

(١) صحيح البخاري، كتاب(الاعتكاف)، باب(اعتكاف النساء)، رقم(١٩٢٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب(صلاة المسافرين وقصرها)، باب(ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح)، رقم(٧٧٥).

الخـاتمـة

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من ببعثه تمت الرسالات، وعلى آله وصحبه الغر الكرام، وبعد...

فمن ثنايا هذه القراءة البلاغية لتنوع الخطاب النبوي بتنوع أحوال المخاطبين نظرا لقوة اتصاله (ﷺ) بمخاطبيه ومراعاته الدقيقة لأحوالهم، نصل إلى خاتمة القول، ونتائج الدراسة التي تخلص في مجملها إلى:

- يقوم الخطاب النبوي في الحديث الشريف على التفاعل الإنساني بين المتكلم (ﷺ) والمخاطب، المبني على المبادرة الذاتية والتي تبدأ عادة من الرسول (ﷺ) إلى المدعوين ، وهو الكثير الغالب، وقد تبدأ من المدعوين أنفسهم، كما في السؤال ، وطلب الفتوى والصدقة وغيرها .
- بينت الدراسة أن الطابع العام للتعبير النبوي هو الوضوح وقرب المتناول وروعة الإيحاء... أما ما نحا منحي الغرابة فقد وافق مقتضي الحال في إغرابه .
- أكد البحث على أن من أهم أسرار نجاح الخطاب النبوي في دعوته هو تقديره للفروق الفردية ، والإمكانات الخاصة للأفراد ، وفي هذا توجيه لمتلقي الخطاب النبوي إلى تجاوز المبادئ اللغوية الخالصة ، إلى العوامل الخارجية التي تؤثر في استعمال اللغة كالإطار الاجتماعي للمخاطب والأحوال النفسية ؛ ليقف على الأحوال الدقيقة للمخاطب.
- تنوع الخطاب النبوي في التأثير والإقناع بين الخطاب العقلي والنفسي والحجاجي بحسب تعدد مستويات الفهم لدى المخاطبين ، مما يدل على حكمته (ﷺ)،وقدرته على الإقناع والتأثير في الآخرين.
- أكد البحث على قيمة التفاعل النبوي مع المخاطبين ، وملاحظة أحوالهم ملاحظة دقيقة ، وما لذلك من دلالات تربوية ونفسية عميقة تؤكد التحام المعلم الأعظم والقائد محمد (ﷺ) بعقول المدعوين وقلوبهم، فلا حواجز نفسية تذكر.

- يقوم الخطاب النبوي في دعوته على بعد إنساني يهدف إلى تقدير المدعوين واحترام عقولهم، ومراعاة ظروفهم الخاصة، والاستجابة الملائمة لأحوالهم وقدراتهم.
- كشفت الدراسة عن شمولية الاتصال النبوي في السنة وتنوعه، سواء في جهة الخطاب، فهناك الكبير والصغير، والرجل والمرأة، والمسلم والكافر والمنافق، أو في الوسائل المستخدمة، كالشدة واللين، والإرسال والتأكيد، والإيجاز والإطناب ، والتصريح والتلميح .. الخ بما يجعل عملية الاتصال النبوي ثرية بالخبرات والتجارب المتعددة والنافعة.
- أكد البحث على اختلاف طبيعة المرأة الجسمانية والشعورية عن طبيعة الرجل ، واحتياجها إلى خطاب خاص ينسجم مع تلك الطبيعة ، ويؤهلها للقيام بواجباتها بنجاح.
- ساهمت مراعاة أحوال المخاطبين الرسول (ﷺ) على احتواء مشاعر الغضب والرفض التي قد تثير صاحبها وتمنعه من قبول الإسلام، فراعى مشاعر العرب، وغير المسلمين، وأحوالهم باستخدام أسلوب اللين والرفق معهم ،وتقديرهم بإنزالهم منزلتهم اللائقة بهم ؛تأليفا لقلوبهم واستمالة لهم نحو الإسلام.
- أوضحت الدراسة إمكانية تنوع الخطاب النبوي على الرغم من اتحاد المخاطب في الجنس والنوع ، مما يشعر بدقته (ﷺ) المتناهية في اعتبار الفروق الدقيقة بين الأفراد.
- كشفت الدراسة عن تنوع الخطاب النبوي، لشمولية خطابه (ﷺ)ودعوته لكل الخلائق، على اختلاف عصورهم، وأنماط حياتهم، ومستوى تفكيرهم، مما يستدعي خطابا خاصا يراعي فيه طبيعة كل فئة وحالهم وظروف حياتهم.
- كشفت الدراسة عن عظمة الشريعة الإسلامية والخطاب النبوي في التغاضي عن بعض المصالح مرعاة لنفوس المدعوين ؛حفظا لهم عن التفلت من الدين .

- أوضحت الدراسة أن تنوع الوصية والفتوي أمر طبعي ، نظرا للتفاوت في طبيعة المخاطبين وجنسهم وسنهم وقدراتهم.
- أكدت الدراسة على أن مراعاة الرسول (ﷺ) لأحوال المخاطبين وظروفهم المتنوعة مع كثرتهم واختلاف طبائعهم وقدراتهم دليل بين على مرونة الدعوة الإسلامية، وتناسبها مع التفاوت الطبيعي بين عقول المدعوين وتفكيرهم، وبما يتناسب مع مستوياتهم النفسية والعقلية.
- أوضحت الدراسة تنوع خطاب النبي (ﷺ) في معاملته للمخطئين بين الشدة واللين تبعا لتنوع حالهم، وأن الرفق واللين هو الخط العام السائد في اتصال النبي بالمخطئين، فلم يقابل خطأهم بالتعنيف أوالتشنيع عليهم بالسخرية منهم، حتى لا يؤدي ذلك إلى قهر نفوسهم، وتحطيم شخصيتهم وإصرارهم على الذنب . وإنما لان لهم ورفق بهم، ولذا دخل قلوبهم هو ودعوته دون استئذان. كما اشتد على بعض أتباعه منعا للتساهل في ارتكاب الخطأ، مراعيا فيهم تقدم اسلامهم ، وقوة إيمانهم وأمن الفتنة عليهم.
- بينت الدراسة أن الغاية الأسمى وراء رعاية الخطاب النبوي الشريف أحوال المخاطبين وظروفهم هي التأثير في المخاطبين وإقناعهم بقيمة ما يدعوهم إليه بالحق، دون إجبار منه أو إكراه، ليقبلوا عليه طائعين راغبين، فليس الخطاب النبوي إنكار لعقل المخاطب، وإنما هو تقويم لعقله.
- أكدت الدراسة على أن تنوع الخطاب النبوي سنة من سنن الدعوة في كل زمان ومكان، ومرجع ذلك إلى تنوع نفوس أمة الدعوة، وتباين طباعها، وتعدد أحوالها، كما يعود ذلك إلى طبيعة الخطأ، ومدى القدرة على ارتكابه وتجنبه.
- رسخ البحث في الأذهان من خلال دراسة رعاية النبي (ﷺ) لأحوال المخاطبين حقيقة من أهم حقائق الوجود الإنساني، وهي ظاهرة الاختلاف الواضح بين البشر، من حيث القدرات العقلية، والإمكانات الجسمانية، والاستعداد النفسي.. فلكل فرد

طاقاتـه وقدراتـه واستعداداته الخاصـة، وبقـدر رعايـة هذه الفـروق، وتلـك المسـتويات والقدرات يكون النجاح أو الإخفاق.

- ❖ كشـفت الدراسـة عـن الـدور العظـيم لرعايـة أحـوال المخـاطبين فـي إكسـابهم الهـدوء النفسـي، وتهيئـتهم لقبـول مـا يـدعوهم إليـه طواعيـة وطمأنينـة، بتفريـغ نفوسـهم ممـا يثقلها ويعنيها، وموافقته (ﷺ) لـهم فـي أهم مـا يثير نفوسـهم، فلـم يصطدم معهم ولـم يسفه أحلامهم، مما دفعهم إلى النظر بعين الرضا فيما يدعوهم إليه.

وفي ضوء ما توصلت إليه الدراسة من نتـائج يوصـي البحث المعلمين فـي كل مراحل الدراسـة بالمعايشـة الحقيقيـة للبيـان النبـوي الشـريف، فـي خطابـه المتنـوع، وتلمـس خطـاه ومنهجه في التربية والتعليم، ومراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ.

كمـا أود توجيـه نظر البـاحثين إلـى دراسـة المقامـات المختلفـة والموضوعات المتنوعـة فـي خطابـه (ﷺ) فـي ضـوء دراسـة مقارنـة تكشـف عـن أثـر البيـان النبـوي فـي الاتصـال بالمخاطبين، ودقته في اعتبار أحوالهم المحتلفة على كثرتها.

والحمد لله أولا وآخرا

المصادر والمراجع

١- الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، تح: عبد الرازق عفيفي، المكتب الإسلامي(دمشق . بيروت)ط: ثانية١٤٠٢هـ.

٢- أدب الكاتب، لابن قتيبة، تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة . بيروت، ط: أولى ١٤٠٢هـ . ١٩٨١م.

٣- الأدب المفرد للبخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية – القاهرة، ط: ثانية، ١٣٧٩م.

٤- أساس البلاغة، للزمخشري، تح: محمد باسل، دار الكتب العلمية (بيروت . لبنان)، ط: أولى ١٤١٩هـ . ١٩٩٨م.

٥- أساليب التربية النبوية للجند من خلال غزوات الرسول(ﷺ) وتطبيقاتها المعاصرة، مشعل بن سيف الجعيد، رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة أم القرى١٤١٨م.

٦- استراتيجيات الخطاب، د. عبد الهادي بن ظفر الشهيري، دار الكتاب الجديدة المتحدة . بيروت، ط: أولى ٢٠٠٤م.

٧- أسس النقد الأدبي عند العرب، د. أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر- القاهرة ١٩٩٦م.

٨- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين، دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، ط: خامسة، ١٤٤١هـ – ٢٠١٩م.

٩- الإعجاز العلمي في الإسلام (السنة النبوية)، د. محمد كامل عبد الصمد، الدار المصرية اللبنانية، ط: رابعة ١٤١٧هـ –١٩٩٧م.

١٠- إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني، تح السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر، ط: خامسة١٩٩٧م.

١١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفي صادق الرافعي، مكتبة الإيمان . المنصورة، ط: أولي ١٤١٧هـ

١٢- أعلام النبوة، الماوردي، دار ومكتبة الهلال . بيروت، ط: أولى ١٤٠٩هـ.

١٣- إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم، القاضي عياض، تح: د. يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء . مصر، ط: أولى١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

١٤- الإيضـاح فـي علـوم البلاغـة، الخطيـب القزوينـي، تـح: د. محمـد عبـد المـنعم الخفـاجي، دار الجيل . بيروت، ط: ثالثة ١٤١٤هـ . ١٩٩٣م.
١٥- البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، محمد بن علي الإتيوبي، دار ابن الجوزي، ط: أولى١٤٢٦هـ .٢٠٠٥م.
١٦- البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، د. محمد العمري، أفريقيا الشرق(المغرب . لبنان)، ط: أولى ١٩٩٩ م.
١٧- البيان النبوي، د. محمد رجب البيومي، دار الوفاء، ط: ثانية ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٢م.
١٨- البيان والتبيين، للجاحظ ، دار ومكتبة الهلال . بيروت١٤٢٣هـ.
١٩- تـاريخ الإسـلام ووفيـات المشـاهير والأعـلام، الـذهبي، تـح: عمـر عبـد السـلام التـدمري، دار الكتاب العربي . بيروت، ط: الثانية١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٢٠- تـاريخ الخلفـاء للسيوطي، دار ابن حزم للطباعة والنشر(بيروت . لبنـان)، ط: أولـى ١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م.
٢١- تـــاريخ مدينـــة دمشـــق، لابـــن عســـاكر، تـــح: عمـــرو بـــن غرامـــة العمـــروي، دار الفكـــر للطباعة١٤١٥هـ - ١٩٩٥م،
٢٢- تأملات دعوية في السنة النبوية، د. عبد الله الوكيل، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ط: أولى١٩٩٨م.
٢٣- تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، للمباركفورى، دار الكتب العلمية - بيروت(دون).
٢٤- تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء . بيروت، ط: ثالثة ١٩٩٧م.
٢٥- التصوير الفنـي فـي الحـديث النبـوي، د. محمـد لطفـي الصبـاغ، مكتـب الثقافـة الإسـلامي . بيروت، ط: أولى١٤٠٣هـ . ١٩٨٣
٢٦- تفسـير التحريـر والتنـوير(تحرير المعنـى السـديد وتنـوير العقـل الجديـد مـن تفسـير الكتـاب المجيد)، للطيب بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس١٩٨٤هـ.
٢٧- التفسير الكبير، الرازي، دار إحياء التراث العربي . بيروت، ط: أولي ١٩٩٩م
٢٨- التوشـيح شـرح الجـامع الصـحيح، للسـيوطي ، تـح: رضـوان جـامع رضـوان، مكتبـة الرشـد - الرياض، ط: الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢٩- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، تح/د. عبد الله بن عبد المحسن، دار هجر للطباعة والنشر ١٤٢٢هـ . ٢٠٠١م.

٣٠- جمع الجوامع (الجامع الكبير)، للسيوطي، تح: مختار إبراهيم الهائج وغيره، الأزهر الشريف بالقاهرة، ط: ثانية١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

٣١- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، د. أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية (بيروت . لبنان).

٣٢- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية المؤلف: أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان(دون).

٣٣- حاشية السندي على سنن النسائي، للسندي، مكتب المطبوعات الإسلامية –حلب، ط: ثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣٤- الحديث النبوي (مصطلحه –بلاغته . كتبه)، محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي ١٤١١هـ . ١٩٩٠م.

٣٥- الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، د. كمال عز الدين، دار اقرأ . بيروت، ط: أولى١٤١٤هـ . ١٩٨٤م.

٣٦- الحواميم السبع (دراسة فنية تحليلية)، د. طالب عويد الشمري، سلسلة الإصدارات العلمية – المركز الوطني لعلوم القرآن والتراث الإقرائي – بغداد، ط: أولى ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٣٧- الخطاب الإعلامي وإدارة الأزمات السياسية الدولية، د. جليل وادي حمود، أطروحة دكتوراة، كلية الآداب . جامعة بغداد. ٢٠٠٠م.

٣٨- دروس في الألسنة العامة، فيردينان دي سوسير، تر: صالح القرمادي وآخرون، الدار العربية للكتاب، ليبيا . تونس ١٩٨٥م.

٣٩- دعوة النبي (ﷺ) للأعراب (الموضوع . الوسيلة . الأسلوب)، حمودة بن جابر الحارثي، دار المسلم، ط: أولى ١٤١٩هـ . ١٩٩٨م.

٤٠- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، تح: د. محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة . دار المدني بجدة، ط: ثالثة ١٤١٣هـ . ١٩٩٢م..

٤١- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة(بيروت . لبنان)، ط: رابعة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٤٢- رؤية جديدة للإيجاز والإطناب، د. عبد الغني محمد بركة، دار الطباعة المحمدية . القاهرة ١٩٨٣م.

٤٣- رياض الصالحين، النووي، تح: د. ماهر ياسين الفحل، دار ابن كثير (دمشق . بيروت)، ط: أولى١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
٤٤- سفراء الرسول، محمد عوض، وكالة الصحافة العربية، ط: أولى٢٠١٧م.
٤٥- سلم الوصول لشرح نهاية السول، للشيخ محمد بخيت، دار الفاروق للنشر والتوزيع ٢٠٠٠م.
٤٦- سنن ابن ماجة، تح: محمد فؤادعبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية . القاهرة، ط: أولى١٩٥٢م.
٤٧- سنن أبي داود، تح: أحمد سعد علي، ط: مصطفى البابي الحلبي ــ مصر، ط: ثانية١٤٠٣هـ . ١٩٨٣م.
٤٨- سنن الترمذي(الجامع الكبير)، تح: أحمد محمد شاكر وآخرون، مطبعة الحلبي . مصر، ط: ثانية١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
٤٩- السنن الكبرى للنسائي، تح: حسن عبد المنعم شلبي وآخرون، مؤسسة الرسالة . بيروت، ط: أولى١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٥٠- سير أعلام النبلاء، للذهبي، تح: الشيخ شعيب الأرناؤوط وغيره، مؤسسة الرسالة، ط: ثالثة١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٥١- السيرة الحلبية(إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، علي بن إبراهيم الحلبي، دارالكتب العلمية - بيروت ط: ثانية - ١٤٢٧هـ.
٥٢- السيرة النبوية لابن هشام، تح: مصطفى السقا وغيره، مطبعة الحلبي . مصر، ط: ثانية١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
٥٣- شرح الإلمام بأحاديث الأحكام، ابن دقيق العيد، تح: محمد خلوف العبد الله، دار النوادر- سوريا، ط: ثانية١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
٥٤- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني، دار الكتب العلمية، ط: الأولى١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
٥٥- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح للتبريزي المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، تح: د. عبد الحميد هنداوي الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز(مكة المكرمة - الرياض)، ط: أولى١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٥٦- شرح سنن ابن ماجه للسيوطي، قديمي كتب خانة - كراتشي(دون).

٥٧- شرح صحيح البخارى لابن بطال، تح: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد(الرياض . السعودية)، ط: ثانية١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٥٨- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، للقلقشندي، دار الكتب العلمية . بيروت (دون).

٥٩- صحيح البخاري، تح: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دار اليمامة – دمشق، ط: خامسة١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٦٠- صحيح مسلم بشرح النووي: ٣/ ٥٢٨، تح: صلاح عويضه وغيره، دار المنارللطبع والنشر . القاهرة١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م.

٦١- عدة الصابرين وزخيرة الشاكرين، الزرعي: ٩٣، تح/ زكريا على يوسف، دار الكتب العلمية . بيروت، (دون).

٦٢- علم التركيب الوظيفي في مشكلة الحدود بين النحو وعلم المعاني، د. دلال وهبه، د. حسن الأبيض، المجلة العربية للعلوم الإنسانية . الكويت، عدد(٧٠)لعام ٢٠٠٠م..

٦٣- علم اللغة الاجتماعي، د. كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر . القاهرة، ط: ثالثة ١٩٩٧م. .

٦٤- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العينى، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت(دون).

٦٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة - بيروت١٣٧٩هـ.

٦٦- فتح العلام في دراسة أحاديث بلوغ المرام، البعداني، دار العاصمة(صنعاء- اليمن)، ط: رابعة١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.

٦٧- فتح المنعم شرح صحيح مسلم، د. موسى شاهين لاشين، دار الشروق، ط: الأولى١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٦٨- فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبد الحليم محمود، دار الوفاء، ط: ثانية ١٤١١هـ . ١٩٩٠م.

٦٩- الفلسفة واللغة(نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة)، د. الزواوي بغورة، دار الطليعة- بيروت، ط: أولى ٢٠٠٥م.

٧٠- في تحديد مفهوم الخطاب، د. كمال عمران، المجلة العربية للثقافة . تونس . عدد [٢٨ . مارس . سبتمبر] ١٩٩٥م..

٧١- فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، للمناوي، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ط: الأولى١٣٥٦هـ.

٧٢- القواعد الفقهية وتطبيقاتها فب المذاهب الأربعة ، د.محمد مصطفرى الزحيلي ، دار الفكر . دمشق، ط: أولى ١٤٢٧هـ . ٢٠٠٦م.

٧٣- كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)، لأبي هلال العسكري، تح: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية(بيروت . لبنان)، ط: ثانية١٤٠٩ . ١٩٨٩م.

٧٤- الكتاب لسيبويه، تح / عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ثانية ١٩٧٧م.

٧٥- الكليات(معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) للكفوي، تح: عدنان درويش، مؤسسة الرسالة (بيروت . لبنان)، ط: أولي ١٩٩٢م.

٧٦- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، للمتقي الهندي ،تح: بكري حيان وصفوة السقا ،مؤسسة الرسالة،ط:خامسة١٤٠١هـ . ١٩٨١م.

٧٧- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، الكرماني، داراإحياء التراث العربي . بيروت، ط: ثانية١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٧٨- لسان العرب، لابن منظور: دار إحياء التراث العربي (بيروت . لبنان)، ط: ثالثة ١٤١٩هـ . ١٩٩٩م.

٧٩- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي(الرباط . المغرب)، ط: أولي ١٩٩٨م.

٨٠- اللغة والخطاب الأدبي، د.سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط: أولي ١٩٩٢م.

٨١- اللغة والمعنى والسياق، جونز لاينز، تر: عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة . بغداد ١٩٨٧م.

٨٢- لمحات من هدي النبي وبلاغته، د. عبد الغني محمد بركة، مطابع دار التعاون للطبع والنشر ٢٠٠١م.

٨٣- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية. بيروت١٤١٦هـ . ١٩٩٥م.

٨٤- المجتبى من السنن (السنن الصغرى)للنسائي، تح: د. عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية. حلب، ط: ثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٨٥- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، تح: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي . القاهرة ١٤١٤هـ .١٩٩٤م.

٨٦- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصفهاني: ٢٦، هذبه: إبراهيم زيدان، مطبعة الهلال بالفجالة . مصر ١٩٠٢م.

٨٧- محمد رسول الله(ﷺ)(منهج ورسالة . بحث وتحقيق)، محمد الصادق إبراهيم عرجون، دار القلم . دمشق، ط: ثانية ١٤١٥هـ .١٩٩٥م.

٨٨- مختلف الحديث بين الفقهاء والمحدثين، د. نافذ حسين حماد، دار الوفاء . القاهرة، ط: أولى١٤١٤هـ . ١٩٩٣م.

٨٩- مراقي العزة ومقومات السعادة(وقفات قرآنية ووصايا وفوائد وفرائد علمية تربوية وحكم ومعان شعرية)، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم، دار ابن الجوزي (الدمام – السعودية)، ط: أولى١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م.

٩٠- المستدرك على الصحيحين للحاكم، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٩١- مسند أبي يعلى الموصلي،لأحمد بن علي المثنى التميمي،تح:سعيد بن محمد السناري، دار الحديث بالقاهرة،ط:أولى١٤٣٤هـ٢٠١٣م.

٩٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط: ثانية ١٤٢١هـ . ٢٠٠١م.

٩٣- مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، تح: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني . السعودية، ط: أولى١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.

٩٤- مشكاة المصابيح، التبريزي، تح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي . بيروت، ط: ثالثة ١٩٨٥م.

٩٥- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، تر: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون . بيروت، ط: أولى ١٤٢٨هـ . ٢٠٠٨م.

٩٦- معالجة المعني في التراث الفكري العربي، د. خالد عبد الرؤف الجبر، المجلة العربية للعلوم الإنسانية . الكويت، العدد (٩٠)لعام٢٠٠٠م.

٩٧- معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، د. عبد الوهاب بن لطف الديلمي، دار المجتمع . جدة، ط: أولى١٤٠٦هـ.

٩٨- معالم السنن (شرح سنن أبي داود)، للخطابي، المطبعة العلمية – حلب، ط: الأولى١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

٩٩- المعجم الكبير، للطبراني، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط: ثانية (د. ت).

١٠٠- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، د. سعد علوش، دار الكتاب اللبناني (بيروت . لبنان)، ط: أولى١٤٠٥هـ . ١٩٨٥م.

١٠١- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بمصر، مكتبة الشروق الدولية ط: رابعة ١٤٢٥هـ . ٢٠٠٤م.

١٠٢- معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو، تر: عبد القادر المهيري، منشورات دار سيناترا . المركز الوطني للترجمة . تونس(دون).

١٠٣- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ . ١٩٧٩م.

١٠٤- المغني لابن قدامة المقدسي، د. عبد اللّه بن عبد المحسن التركي، وغيره، دار عالم الكتب(الرياض السعودية)، ط: ثالثة ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

١٠٥- مفتاح العلوم، للسكاكي، تح: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية . بيروت، ط: أولى ٢٠٠٠م.

١٠٦- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي، تح: يوسف علي بديوي وآخرون، دار ابن كثير. دمشق، ط: أولى١٤١٧هـ .١٩٩٦م.

١٠٧- مفهوم الخطاب في النظرية النقدية، عبد الرحمن حجازي، مجلة علامات في النقد . النادي الأدبي الثقافي . جدة، مج (١٥)، ج(٥٧)، رجب ١٤٢٦هـ . سبتمبر٢٠٠٥م..

١٠٨- مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة (مفهوم، ونظر، وتطبيق)، د. سعيد بن علي القحطاني، مطبعة سفير، الرياض(دون).

١٠٩- من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف، د. فتحية العقدة، ط: الأمانةأولى١٤١٤هـ . ١٩٩٣م.

١١٠- من صفات الداعية مراعاة أحوال المخاطبين في ضوء الكتاب والسنة وسير الصالحين، د. فضل إلهي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع . الرياض ١٤١٧هـ .١٩٩٦م.

١١١- منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم، تح: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان . سوريا ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١١٢- منحة الباري بشرح صحيح البخاري(تحفة الباري)، زكريا الأنصاري، مكتبة الرشد(الرياض . السعودية) ط: أولى ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م.

١١٣- منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية، د. علي بن جابر الحربي، الزهراء للإعلام العربي . القاهرة، ط: أولى١٩٨٦م.

١١٤- منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، د. حمود الرحيلي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، (المدينة المنورة . السعودية)، ط: الأولى١٤٢٤هـ .٢٠٠٤م.

١١٥- المنهل الحديث في شرح الحديث، د. موسى شاهين، دار المدار الإسلامي . ليبيا، ط: الأولى٢٠٠٢م.

١١٦- موطأ الإمام مالك، تح: محمد الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان(أبو ظبي – الإمارات)، ط: أولى١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

١١٧- نحو نظرية أسلوبية لسانية، فيلي ساندرس، تر/د. خالد جمعة، دارالفكرالمعاصر- دمشق، ط: أولى١٤٢٤هـ . ٢٠٠٣م.

١١٨- نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، بدر الدين العيني، تح: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، وزارة الأوقاف– قطر، ط: أولى١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

١١٩- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د. نهاد الموسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٨٠م.

١٢٠- نقد النثر، لابن قدامة، دار الكتب المصرية ١٣٥١هـ . ١٩٣٣م.

١٢١- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، دار الكتب والوثائق القومية . القاهرة، ط: أولى ١٤٢٣هـ.

١٢٢- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القلقشندي، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني . بيروت، ط: ثانية١٤٠٠هـ . ١٩٨٠م.

١٢٣- نهاية الأصول في دراية الوصول، الصفي الهندي، تح: د. صالح بن سليمان اليوسف وغيره، المكتبة التجارية . مكة المكرمة، ط: أولى ١٤١٦هـ . ١٩٩٦م.

١٢٤- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير الجزري، تح: طاهر أحمد الزاوى . المكتبة العلمية – بيروت ١٣٩٩هـ –١٩٧٩م.

١٢٥- نوادر الأصول في أحاديث الرسول (ﷺ)، الحكيم الترمذي، تح: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل – بيروت(دون).

١٢٦- وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية(دراسة حول المعنى وظلال المعنى)، د. محمد محمد يونس، منشورات جامعة الفاتح، (طرابلس . لبنان) ١٩٩٣م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمـــــــــة.....	١٥٢٦
التمهيـــــــد	١٥٣٦
المبحث الأ ل :تنوع الخطاب النبوي في السياقات المختلفة بتنوع مقتضي الحال	١٥٤٨
المطلب الـأول : في سياق قبول الصدقة ومنحها .	١٥٤٨
المطلب الثـاني : في سياق تقدير لهجة المخاطب ولغته.	١٥٥٢
المطلب الثـالث : في سياق خطاب الأتباع والمخالفين والمخطئين.	١٥٦١
المطلب الـرابع : في سياق العظة و الحث على صلة الرحم وحسن العشرة.	١٥٧٧
المطلب الخامس : في سياق التأثير والإقناع.	١٥٨٥
لمطلب السادس :في سياق التغاضي عن بعض الأولويات تقديرا لحال المخاطب.	١٥٩٢
المطلب السابع : تباين المقامات قوة وهدوءا تقديرا لحال المخاطب.	١٥٩٦
المبحث الثاني : تنوع الخطاب النبوي تقديرا لما بين المخاطبين من فروق وإمكانات.	١٦٠٢
المطلب الأول : تنوع الخطاب النبوي بتنوع جنس المخاطب.	١٦٠٢
المطلب الثاني : تنوع الخطاب النبوي في الوصية بتنوع حال المخاطب.	١٦١٦
المطلب الثالث : تنوع الخطاب النبوي في الفتوى بتنوع حال المُسْتَفْتِي .	١٦٢٩
المطلب الرابع : تنوع الخطاب النبوي تبعا لمكانتة المخاطب.	١٦٣٤
المطلب الخ امس : تنوع تكليفات النبي(ﷺ)وتحديد المهام بتنوع أحوال المخاطبين وقدراتهم.	١٦٤٧
المطلب السادس : تنوع الخطاب النبوي في أجوبته بتنوع حال السائل.	١٦٥٦
الخاتمة.....	١٦٦٧
فهرس المصادر والمراجع.....	١٦٧١
فهرس الموضوعات.....	١٦٨٠